مصباح الزجاجة

في فوائد صلاة الحاجة

للإمام الحافظ

أبي الفضل عبد الله بن الصديق الغماري الحسني

إصدار

واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم – فلسطين

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة موجزة للعلامة الجليل والمحدث النحرير

سيدي عبد الله بن الصديق الغماري الإدريسي الحسني

اسمه وكنيته:

هو سليل العترة النبوية الطاهرة الشيخ العلامة المحدث الفقيه الأصولي المفسر اللغوي المسند الشاعر الحافظ المجتهد وريث المعقول والمنقول وحيد عصره وسيد مصره ولي الله الصالح بلا نزاع سيدي ومولاي أبو الفضل عبد الله ابن العلاَّمة أبي عبد الله شمس الدين محمد ابن الولي الكبير سيدي محمد الصديق الغماري الطنجي.

نسبه:

يعود نسبه من جهة الأب والأم إلى سيدنا إدريس الأصغر ابن مولانا إدريس الأكبر فاتح المغرب ابن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن سيدنا علي وفاطمة عليهما السلام كما هو مدون في كتب التراجم وأمه حفيدة الولي الصالح سيدي أحمد بن عجيبة شارح الحكم العطائية.

مولده:

وُلد رحمه الله تعالى في آخر يوم من جمادى الآخرة أو غرة رجب عام 1328 هجري الموافق 8 يوليو 1910 رومي بثغر طنجة.

نشأته ورحلاته:

نشأ رحمه الله في رعاية والده رحمه الله فتعلم على يديه مبادئ العلوم الشرعية وبه تأسس واستأنس، وكرع من حياضه وتأدب بآدابه، وبحضرته جالس العلماء الأفذاذ والصالحين فحفظ القرءان ثم شرع في حفظ بعض المتون ومعظم منظومة الخراز المسماة "مورد الظمآن" وجملة كبيرة من الألفيَّة والأربعين النووية والأجرومية، قرأ بلوغ المرام

ومختصر الشيخ خليل، ثم قرأ شرح الأزهري على الأجرومية على أخيه أبي الفيض، وحلَّ قبل ذلك عباراتها حلًا موجزًا على خاله السيد أحمد بن عبد الحفيظ بن عجيبة.

الرحلة إلى فاس:

ثم سافر رحمه الله إلى فاس بأمر والده لطلب العلم في جامعة القرويين وهي من الجامعات المعدودة في العالم الإسلامي مثل الزيتونة والأزهر والنظامية فقرأ فيها اثني عشر فنًا من الفنون الشرعية المتعارف عليها في تلك الجامعات العريقة – والتي يؤمر بتحصيلها كل عالم– مثل: شرح المكودي مع حاشية ابن الحاج وشرح ابن عقيل وحاشية السجاعي وشرح الخرشي على مختصر خليل وشرح البخاري للقسطلاني والمحلي على جمع الجوامع في الأصول والتوحيد لابن عاشر ورسالة الوضع وشرح القويسني على السلم.

وفي أثناء إقامته في فاس اجتمع بالسيد محمد بن جعفر الكتاني، وأجازه السيد مهدي العزوزي الذي يروي عن السيد مرتضى الزبيدي المتوفى سنة 1205 هجري بواسطتين.

ثم رجع إلى طنجة بعد أن كرع وتضلَّع وصار مقدَّمًا على جميع أقرانه فدرَّس بالزاوية الصديقيَّة واجتمع عليه الناس وظهرت عليه آثار الصلاح والتحقيق والنظر.

الرحلة إلى مصر:

وفى أواخر شهر شعبان عام 1349 هجري الموافق لها 1930 رومي سافر إلى مصر والتحق بالأزهر الشريف ومن الجدير بالذكر انه حلَّ عليه عالمًا متضلعًا متقنًا دون أن يُظهر ذلك تواضعًا للعلم وأهله وطاعةً لوالده تكسوه آداب طالب العلم فكرع من حياض العلم التي تجعل من طالب العلم في عُرف الأزهر عالمًا وهو ما لا بد من تحصيله قبل التصدر للعلم في مصر ومما يعرف في مصر أن المتصدر للعلم إن لم يشهد له

الأزهر بذلك لا تقبل أقواله وهذا مما هو جليٌ في مصر والزيتونة في تونس فقرأ شيخنا شرح الملوي على السلَّم وحاشية الصبَّان وجمع الجوامع بشرح المحلي والرسالة السمرقنديَّة في آداب البحث والمناظرة وشرح الأسنوي على منهاج الأصول للبيضاوي وتهذيب السعد بشرح الخبيصي في المنطق.

ثم اتجه للفقه الشافعي تنفيذًا لأوامر والده فحضر في المنهج للشيخ زكريا وشرح الخطيب على أبي شجاع وحضر دروس الشيخ محمد بخيت المطيعي في التفسير والهداية في الفقه الحنفي وفي حاشيته على شرح الأسنوي على منهاج الأصول وأجازه إجازة عامة.

ولمزيد حرصه على تحصيل العلوم الشرعية كان يؤم بيوتات العلماء وكذلك نزولًا عند رغبة والده ألا يدع عالمًا إلا ويجلس بين يديه فسخرت له الأسباب وفتحت له الأبواب وكان مقبولًا عند الخواص والعوام ويدل ذلك على صلاحه وعلو كعبه ودرجة القبول، وتقدَّم لامتحان العالمية (عالمية الغرباء) فحصل عليها، ثم حصل على عالمية الأزهر والامتحان فيها في اثني عشر فنًّا فنجح بدرجة ممتاز حتى أن شيخ الأزهر قال عنه: "إن الأزهر ليفتخر بحصول الشيخ عبد الله على شهادة العالمية".

تدريسه:

درَّس شيخنا رحمه الله جمع الجوامع بشرح المحلي وشرح الملوي على السلَّم، وسُلَّم الوصول إلى علم الأصول لابن أبي حجاب، والجوهر المكنون في البلاغة للأخضري، وشرح المكودي على الألفيَّة، وتفسير النسفي، والأحكام للآمدي، والخبيصي على تهذيب السعد في المنطق، وتفسير البيضاوي.

شيوخه:

تلقى شيخنا صاحب الترجمة العلوم على أكثر من مائتي عالم نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

شيوخه من المغرب:

1- والده علاَّمة المغرب السيد محمد بن الصديق رحمه الله تعالى.

2- أخوه الحافظ العلاّمة أبو الفيض أحمد.

3- العلاَّمة الشيخ القاضي العبّاس بن أبي بكر بناني.

4- العلاّمة أبو الشتاء بن الحسن الصنهاجي.

5- العلاَّمة عبد الله الفضيلي.

6- العلاَّمة السيد عبد الرَّحمن بن القرشي العلوي.

7- الشريف الحبيب المهاجي.

8- المحدِّث عبد الحي الكتاني.

9- العلاَّمة السيد محمد المكِّي بن محمد البطاوري.

10- السيد المهدي بن العربي بن الهاشمي الزرهوني.

11- الملك إدريس بن محمد المهدي ابن العلاَّمة محمد ابن علي السنوسي الشريف الحسني.

12- القاضي المسند الكبير عبد الحفيظ بن محمد بن عبد الكبير الفاسي الفهري.

13- العلاَّمة الأثري الصوفي أبو القاسم بن مسعود الدبَّاغ.

14- العلاَّمة المحدّث السيِّد محمد بن إدريس القادري الحسني الفاسي.

تونس:

شيخ جامع الزيتونة الشيخ طاهر بن عاشور التونسي المالكي.

مصر:

1- الشيخ محمد بخيت المطيعي الحنفي.

2- مسند العصر الشيخ أحمد بن محمد بن عبد العزيز ابن رافع الحسيني الطهطاوي.

3- الشيخ محمد إمام بن برهان الدين إبراهيم الشهير بالسقّا الشافعي.

4- الشيخ محمد بن إبراهيم الحميدي السمالوطي المالكي.

5- الشيخ أحمد بن محمد بن محمد الدلبشاني الموصلي القاهري.

6- السيد بهاء الدين أبو النصر بن أبي المحاسن القاوقجي الطرابلسي.

7- الشيخ محمد الخضر بن حسين التونسي.

8- العلاَّمة الشيخ محمد دويدار الكفراوي التلاوي الشافعي.

9- الشيخ عبد المجيد بن إبراهيم بن محمد اللبَّان.

10- الشيخ عبد الواسع بن يحيى الصنعاني اليمني.

11- الشيخ محسن بن ناصر باحربه اليمني الحضرمي الشافعي.

12- الشيخ عبد الغني طموم الحنفي.

13- الشيخ محمد بن إبراهيم البيلاوي المالكي.

14- الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري.

15- الشيخ محمد بن حسنين بن محمد مخلوف العدوي المالكي.

16- الشيخ عبد المجيد الشرقاوي.

17- الشيخ محمد عزت.

الحجاز:

1- الشيخ المحدث عمر حمدان المحرسي.

2- الشيخ المحدث عبد القادر بن توفيق الشلبي الطرابلسي.

3- الشيخ المعمّر محمد المرزوقي بن عبد الرحمن أبو الحسين المكّي الحنفي.

4- العلاَّمة عبد الباقي بن مُلا علي بن مُلا محمد معين اللكنوي الأنصاري المدني الحنفي.

الشام:

1- الشيخ محمد سعيد بن أحمد الفرا الدمشقي الحنفي.

2- العلاَّمة الورِع بدر الدين بن يوسف الحسني الدمشقي الشافعي شيخ دار الحديث بدمشق.

3- الأستاذ الشيخ عبد الجليل بن سليم الذرا الدمشقي.

4- الشيخ محمد راغب بن محمود الطبَّاخ الحلبي الحنفي.

5- الشيخ يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني الشافعي البيروتي.

6- الشيخ عطاء بن إبراهيم بن ياسين الكسم الدمشقي الحنفي.

شيوخه من النساء:

أم البنين آمنة بنت عبد الجليل بن سليم الذرا الدمشقيّة.

مؤلّفاته:

ألَّف شيخنا رحمه الله العديد من المصنَّفات كلها نافعة نفيسة مفيدة تدل على بُعدِ نظره وعمق غوصه في عويص المسائل مما جعله يلحق بركب السلف من حيث الفهم والاستدلال وطريقة التأليف بل فاق الكثير منهم، والدليل على ذلك أنه ألف كتبًا لم يسبق إليها نذكر منها:

1- بِدَعُ التفاسير.

2- ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة.

3- الفوائد المقصودة ببيان الأحاديث الشاذة المردودة.

وله أقوال انفرد بها عن كثير من العلماء، وله تحقيقات لم يسبق إليها مع تواضع قلَّ نظيره، ومن اطلع على كتابه الرد المحكم المتين عَلِمَ قيمة هذا العالم وعظيم قدره، وتضلعه في الرد والبحث والمناظرة وإعطاء المسائل حقها، ومن صور تواضعه التي تدل على صلاحه تنبيهه على أخطائه التي وقع فيها وتراجعه عنها.

طلابه:

مما يجدر الإشارة إليه أنه لا يوجد على البسيطة اليوم عالمٌ معتبرٌ يشار إليه بالبنان من أهل السنة والجماعة وغيرهم إلا وجلس بين يديه أو انتفع بكتبه، فمنهم من حفظ الأمانة وأعطى الشيخ حقه وأحال إلى كتبه، ومنهم من ضيع الأمانة ونسب الأقوال إلي نفسه أو لم يحل إلى كتب الشيخ.

مواقفه:

للشيخ رحمه الله عدة مواقف، منها ما هو علمي حيث تصدى لكثيرٍ من الآراء التي لا تصلح أن تصدر من عامي زيادة على أن تصدر من عالم كموقفه من نزول سيدنا عيسى عليه السلام رادًا فيها على أحد كبار مشايخ الأزهر، وكذلك رده على البناني في معنى الإله، وكذلك رده على القائلين بالهجر بلا علة لازمة، والهجرة إلى بلاد الكفار، وكذلك على عدم فهم كثير من المعاصرين علة تحريم نساء أهل الكتاب، وكثير من هذه المواقف العلمية مما يطول ذكرها.

وأما ما ابتلي به الشيخ من علماء السوء فيصعب أن يتحمله إنسان، ويكفي في ذلك المحنة التي أودت بالشيخ إلى السجن الانفرادي مدة خمسة عشر سنة تقريبًا مع الكيد ومحاولة إعدامه، ولكن الله ناصرُ أوليائه وهو يفعل ما يشاء ويختار وتلك سنة الأنبياء والمرسلين وذلك نهج الأولياء والصالحين.

وفاته:

توفي رحمه الله عام 1413 هجري الموافق 1993 رومي بطنجة ودفن فيها قرب والده.

نفعنا الله بعلومه وأفاض علينا من بركاته

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين.

تنبيه:

نلفت عناية القارئ الكريم أننا قد حرصنا بأن نطرح الكتاب على موقعنا كما هو من غير زيادة أو نقصان إلا ما كان من قبيل ترجمة المؤلف لكي يكون القارئ على بينة من هذا العالم الرباني على أن لا يمتنع أن يُلاحظ بعض القُراءِ أن ما في الكتاب لا يتوافق مع آرائهم التي يحملونها لذا نرجو من كل من يطلع على هذا الكتاب أن يكون منصفًا ناصرًا للحق، وإذا ما وجد خطًا فليصلحه في الهامش ويبين ذلك ولا يمس أصل الكتاب فقد قال الشاطبي في حرز الأماني:

وإن كـان خرقٌ فادركه بفضلة من الحلم وليصلحه من جاد مقولا

إعداد:

واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم – فلسطين

9 جمادى الأولى 1435 هجري الموافق 10 مارس 2014 رومي

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم لك الحمد حمدًا كثيرًا خالدًا مع خلودك، ولك الحمد حمدًا لا مُنْتَهَى له دون علمك، ولك الحمد حمدًا لا منتهى له دون مشيئتك، ولك الحمد حمدًا لا أجر لقائله إلاّ رضاك، ونسألك اللهم أن تصلّي أفضل الصلوات، على أفضل المخلوقات، وأكمل الكائنات، سيّدنا محمد عبدك ورسولك، وصفيّك وخليلك، الّذي أعليت منزلته، وأعظمت كرامته، وقبلت شفاعته، وأنلته من المنح والعطايا ما لم ينله أحد من العالمين، وارض اللهم عن آله الطيبين الطاهرين، وخيار صحابته من الأنصار والمهاجرين.

أما بعد:

فهذا جزء تكلّمت فيه على حديث توسل الضرير، وبَيَّنت صحته بالقواعد الحديثيّة والأصوليّة، ودفعت ما أورد على الاستدلال به من إيرادات واعتراضات، وأوضحت دلالته على جواز التوسّل من عدّة وجوه، إلى غير ذلك من المباحث والفوائد التي لها به تعلّق وارتباط، وسمّيته: (**غاية التحرير في بيان صحّة حديث توسّل الضّرير**)، وقد استوفيت طرق الحديث في هذا الجزء – والحمد لله– استيفاءً بالغًا لم نجده قبل مجموعًا في كتاب، وكان مما دعاني إلى تحرير هذا البحث ما رأيته من تخبّط الوهّابيين في الحديث المذكور، وتضعيفهم له بغير علم ولا تثبّت، وفي ذلك جرأة على حديث رسول الله، يخشى على صاحبها سوء المصير، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: ﴿ من بلغه عني حديث فكذّب به فقد كذّب ثلاثة: الله ورسوله والذي حدّث به ﴾ رواه الطبراني في الأوسط من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وفي سنده محفوظ بن ميسور ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، ونص العلماء على فسق من رد حديثًا صحيحًا من غير

عذر مقبول، ولكن الوهابيين لهم مسلك عجيب!! تراهم يستدلّون لما يوافق مرادهم بالأحاديث ويغمضّون عمّا في بعضها من ضعف، ويدعمون ما استطاعوا أن يدعموه منها، فإذا صدموا بحديث يرد رأيهم، انحرفوا عنه، وحاولوا تضعيفه جهد طاقتهم، ولم يقبلوا دعمه ولا تقويته، وأصروا في عناد على التّخلّص منه، كفعلهم في حديث الضّرير، لم يجدوا في سنده مغمزًا إلاّ قول التّرمذي – في أبي جعفر–: وهو غير الخطمي، فتشبّثوا به، وجمدوا عليه، ليصلوا إلى تضعيفه وردّه، ولم يبالوا بقول ابن أبي خيثمة والطبراني والحاكم والبيهقي: إن أبا جعفر هو الخطمي، ولا بتصويب ابن تيمية قول هؤلاء الحفّاظ وردّه لكلام التّرمذي، وأعجب من هذا أنّهم لم يأبهوا لتصحيح التّرمذي نفسه للحديث!! ولا لتصحيح الحفّاظ له، خصوصًا المنذري وابن تيمية والذّهبي والهيثمي والسّخاوي، وما هذا إلاّ عناد وتكبّر عن قبول الحق، يصدق عليه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم – حين سئل عن الكبر الذي يمنع صاحبه من دخول الجنّة– ﴿ الكبر بطر الحق وغمط الناس ﴾ نسأل الله لنا ولهم الهداية والتّوفيق.

أبو الفضل

عبد الله محمد الصديق

الغماري عُفِيَ عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

باب في تخريج الحديث وذكر طرقه

قال الترمذي في (أبواب الدّعاء من جامعه): حدثنا محمود بن غيلان ثنا عثمان بن عمر ثنا شعبة عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أنَّ رجلًا ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ادع الله أن يعافيني قال: ﴿ إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك ﴾ قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء ﴿ اللهم أني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجّه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه فيَّ ﴾ قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو غير الخطمي، قلت: لعلّ زيادة لفظ: غير، تحريف من بعض النّسّاخ، وإلاَّ فأبو جعفر هو الخطمي كما صرّح به ابن أبي خيثمة والطّبراني وغيرهما وسيأتي كلامهم بحول الله.

وقال ابن تيمية ما نصّه: هكذا وقع في التّرمذي، وسائر العلماء قالوا: هو أبو جعفر الخطمي، وهو الصّواب، وأيضًا فالتّرمذي ومن معه لم يستوعبوا لفظه، كما استوعبه سائر العلماء، بل رووه إلى قوله ﴿ اللهم فشفّعه فيَّ ﴾ انتهى بلفظه.

ورواه النّسائي في (عمل اليوم والليلة) عن محمود بن غيلان عن عثمان بن عمر بالسّند المذكور، ورواه أيضًا عن محمد بن معمر عن حبان عن حمّاد – هو ابن سليمة – عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف.

ورواه أيضًا عن زكريا بن يحيى عن ابن مثنى عن معاذ بن هشام عن أبيه عن أبي جعفر عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف نحوه.

وقال ابن ماجه في (باب ما جاء في صلاة الحاجة من سننه): حدّثنا أحمد بن منصور بن سيار ثنا عثمان بن عمر ثنا شعبة عن أبي جعفر المدني عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أنّ رجلًا ضرير البصر أتى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ادع الله أن يعافيني فقال: ﴿ إنْ شِئْتَ أَخَّرْتُ لك وهو خير، وإن شِئْتَ دَعَوْت ﴾ قال: فادعه، فأمره أن: يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء ﴿ اللهم إني أسألك وأتوجّه إليك بمحمد نبي الرحمة، يا محمد إني قد توجّهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي! اللهم فشفعه فيّ ﴾ قال أبو إسحاق: هذا حديث صحيح.

وقال ابن السنّي في كتاب (عمل اليوم والليلة) تحت ترجمة باب ما يقول لمن ذهب بصره: أخبرني أبو عروبة حدثنا العباس بن فرج الرياشي والحسين بن يحيى الثوري قالا ثنا أحمد بن شبيب بن سعيد قال ثنا أبي روح بن القاسم عن أبي جعفر المدني وهو الخطمي عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وجاء إليه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ ألا تصبر؟ ﴾ قال: يا رسول الله ليس لي قائد، وقد شقَّ عليّ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ ائت الميضأة، فتوضأ وصل ركعتين، ثم قل: اللهم إنِّي أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم، يا نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي عز وجل، فيجلي عن بصري، اللهم شفعه فيَّ، وشفعني في نفسي ﴾، قال عثمان: وما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل كأنه لم يكن به ضر قط.

وقال الإمام أحمد في (المسند): حدثنا روح بن عبادة ثنا شعبة عن أبي جعفر المديني سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أنّ رجلًا ضريرًا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا نبي الله ادع الله أن يعافيني قال: ﴿ إن شِئْتَ أَخَّرْتُ ذلك فهو خير لآخرتك، وإن شِئْتَ دعوتُ لك ﴾ قال: لا بل ادع الله لي، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين، وأن يدعو بهذا الدعاء، ثم ذكر الدعاء نحو رواية الترمذي، قال: ففعل الرجل فبرئ.

وقال الحاكم في (المستدرك على الصحيحين): حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا العباس بن محمد الدوري ثنا عثمان بن عمر ثنا شعبة عن أبي جعفر المديني قال سمعت عمارة بن خزيمة يحدث عن عثمان بن حنيف أنّ رجلًا ضريرًا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ادع الله أن يعافيني، فقال: ﴿ إن شِئْتَ أَخَّرْت ذلك وهو خير وإن شِئْتَ دعوتُ ﴾ قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء فيقول ﴿ اللهم إنِّي أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إنِّي توجهت بك إلى ربي في حالتي هذه فتقضى لي، اللهم شفعه فيّ وشفعني في نفسي ﴾ ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وسلمه الحافظ الذَّهبي.

ورواه أيضًا من طريق عون بن عمارة البصري، ومن طريق شبيب بن سعيد الحبطي كلاهما عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المدني وهو الخطمي عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجاءه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال: يا رسول الله ليس لي قائد، وقد شق علي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين وقل... ﴾ فذكر الدّعاء المتقدّم، قال

عثمان بن حنيف: فو الله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث، حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضر قط، ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري، وسلّمه الذّهبي.

وقال ابن[1] أبي خيثمة في (تاريخه): حدثنا مسلم بن إبراهيم ثنا حماد بن سلمة أنا أبو جعفر الخطمي عن عمارة بن خزيمة عن عثمان بن حنيف أن رجلًا أعمى أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إنّي أُصبت في بصري فادع الله لي، قال: ﴿ اذهب فتوضّأ وصل ركعتين ثم قل اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بالنبي محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أستشفع بك على ربي في رد بصري اللهم فشفعني في نفسي وشفع نبيي في رد بصري وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك ﴾ فرد الله عليه بصره، قال ابن أبي خيثمة: أبو جعفر هذا الذي حدّث عنه حمّاد بن سلمة اسمه عمير بن يزيد، وهو أبو جعفر الّذي يروي عنه شعبة، ثم روى الحديث من طريق عثمان بن عمر عن شعبة عن أبي جعفر.

وقال البيهقي في كتاب (دلائل النّبوّة): باب ما جاء في تعليمه الضرير ما كان فيه شفاؤه، حين لم يصبر، وما ظهر في ذلك من آثار النبوة.

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ – هو الحاكم– قال: ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا العباس بن محمد الدوري، وأخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن القاضي ثنا أبو علي

(1) هو الحافظ الحجة الثقة أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب النسائي، أبوبكر الحافظ ابن الحافظ، وأبو الحافظ، قال الدارقطني: ثقة مأمون، وقال الخطيب: ثقة عالم متقن حافظ بصير بأيام الناس راوية للأدب، أخذ علم الحديث عن أحمد بن حنبل وابن معين، وعلم النسب عن مصعب، وأيام الناس عن علي بن محمد المدئني، والأدب عن محمد بن سلام الجمحي، وله كتاب التاريخ الذي أحسن تصنيفه وأكثر فائدته، وقال الخطيب أيضاَ: "لا أعرف أغزر فوائد من كتاب التاريخ الذي صنفه ابن أبي خيثمة، وكان لا يرويه إلا على الوجه، فسمعه الشيوخ الأكابر كأبي القاسم البغوي ونحوه"ا.هـ. توفي سنة 279 وعمره 94 سنة رحمه الله ورضي عنه.

حامد بن محمد الهروي ثنا محمد بن يونس، قالا: ثنا عثمان بن عمر ثنا شعبة عن أبي جعفر الخطمي سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أنّ رجلًا ضريرًا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: ﴿ فإن شئت أخرت ذلك وهو خير لك وإن شئت دعوت الله ﴾ قال: فادعه، فأمره أن يتوضأ، فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء ﴿ اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فيقضيها لي، اللهم شفعه فيّ وشفعني في نفسي ﴾ هذا لفظ حديث العباس، زاد محمد بن يونس في روايته: قال فقام وقد أبصر، ورويناه في كتاب (الدعوات) بإسناد صحيح عن روح بن عبادة عن شعبة قال: ففعل الرجل فبرأ، وكذلك رواه حماد بن سلمة عن أبي جعفر الخطمي.

وأخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو محمد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سهل الدياس بمكة ثنا محمد بن يزيد الصائغ ثنا أحمد بن شبيب بن سعيد الحبطي حدثني أبي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المديني وهو الخطمي عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – وجاءه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال: يا رسول الله ليس لي قائد، وقد شقَّ عليَّ– فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين، ثم قل: اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيجلي لي عن بصري، اللهم شفعه فيّ، وشفعني في نفسي ﴾ قال عثمان: فو الله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن فيه ضير قط.

أخبرنا أبو سعيد عبد الملك بن أبي عثمان الزاهد رحمه الله أخبرنا الإمام أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي القفال أخبرنا أبو عروبة ثنا العباس بن الفرج ثنا إسماعيل بن شبيب ثنا أبي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المديني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف: أن رجلًا كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمان بن حنيف فشكى إليه ذلك، فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي حاجتي، واذكر حاجتك، ثم رح حتى أروح معك، فانطلق الرجل وصنع ذلك ثم أتى باب عثمان بن عفان فجاء البواب فأخذ بيده فأدخله على عثمان فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: انظر ما كانت لك من حاجة، ثم أن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيرًا، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلي حتى كلمته، فقال له عثمان بن حنيف ما كلمته، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – وجاءه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ أَوَ تصبر؟ ﴾ فقال: يا رسول الله ليس لي قائد، وقد شقَّ عليّ، فقال: ﴿ ائت الميضأة فتوضأ وصل ركعتين، ثم قل اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيجلي لي عن بصري، اللهم شفعه فيّ، وشفعني في نفسي ﴾ قال عثمان: فو الله ما تفرقنا وطال بنا الحديث، حتى دخل الرجل كأن لم يكن به ضرر.

وقد رواه أحمد بن شبيب بن سعيد عن أبيه بطوله أيضًا: أخبرنا أبو علي الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن شاذان أخبرنا عبد الله بن جعفر بن درستويه ثنا يعقوب بن

سفيان ثنا أحمد بن شبيب بن سعيد فذكره بطوله، وذلك فيما ذكر شيخنا أبو عبد الله الحافظ أن علي بن عيسى بن إبراهيم حدثهم ثنا إبراهيم بن محمد بن يزيد السكوني ثنا يعقوب بن سفيان الفارسي ثنا أحمد بن شبيب بن سعيد ثنا أبي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المديني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمّه عثمان بن حنيف أن رجلًا كان يختلف إلى عثمان بن عفّان رضي الله عنه في حاجة، فذكر الحديث، ورواه أيضًا هشام الدستوائي عن أبي جعفر عن أبي أمامة بن سهل عن عمّه، وهو عثمان بن حنيف، هذا كلام البيهقي بنصّه.

وقال الطبراني – في ترجمة عثمان بن حنيف من (معجمه الكبير)–: حدثنا طاهر بن عيسى بن قريش المصري المقري ثنا أصبغ بن الفرج ثنا ابن وهب – يعني عبد الله– عن أبي سعيد المكي – يعني شبيب بن سعيد– عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أنّ رجلًا كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه، ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكا إليه ذلك فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي حاجتي وتذكر حاجتك، ورح حتى أروح معك، فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان رضي الله عنه، فجاء البواب حتى أخذ بيده، فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: ما حاجتك؟ فذكر حاجته، وقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجة فاذكرها، ثم إن الرّجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيرًا، ما كان ينظرُ في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتى كلّمتَه فيَّ،

فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلمته، ولكني شهدتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأتاه ضرير فشكى إليه ذهاب بصره، فقال له النّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ أَوَ تصبر؟ ﴾ فقال: يا رسول الله إنه ليس لي قائد، وقد شقَّ عليّ، فقال له النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات ﴾ قال ابن حنيف: فو الله ما تفرقنا وطال بنا الحديث، حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط.

ورواه في (المعجم الصغير) فيمن اسمه: طاهر، من شيوخه، من هذا الطريق بهذا اللفظ، وقال ما نصه: "ما يَرْوِهِ عن روح بن القاسم إلا شبيب بن سعيد أبو سعيد المكي وهو ثقة، وهو الذي يروي عنه أحمد بن شبيب عن أبيه عن يونس بن يزيد الأيلي وقد روى هذا الحديث شعبة عن أبي جعفر الخطمي – واسمه عمير بن يزيد– وهو ثقة تفرد به عثمان بن عمر بن فارس عن شعبة، والحديث صحيح" هذا كلام الطبراني بحروفه، قال ابن تيمية ما نصه: "والطبراني ذكر تفرّده بمبلغ علمه، ولم يبلغه رواية روح بن عبادة عن شعبة، وذلك إسناد صحيح يبين أنه لم ينفرد به عثمان بن عمر"ا.هـ. بلفظه.

وقال الحافظ المنذري في (الترغيب والترهيب) ما نصّه: "الترغيب في صلاة الحاجة ودعائها، عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أنَّ أعمى أتى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله ادع الله أن يكشف لي عن بصري قال: ﴿ أو أدعك؟ ﴾ قال: يا رسول الله إنّه قد شق عليّ ذهاب بصري قال: ﴿ فانطلق وتوضّأ ثم صل ركعتين ثم قل: اللهم إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيي محمّد نبيّ الرّحمة، يا محمد إنّي أتوجّه إلى ربي بك أن يكشف لي عن بصري، اللهم شفّعه فيّ، وشفّعني في نفسي ﴾ فرجع وقد كشف الله عن بصره، رواه التّرمذي وقال: حديث حسن

صحيح غريب، والنّسائي واللّفظ له، وابن ماجه وابن خزيمة في (صحيحه)، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري ومسلم، وليس عند التّرمذي: ﴿ ثم صلِّ ركعتين ﴾، ورواه الطّبراني وذكر في أوله قصة، وهي أنّ رجلًا كان يختلف إلى عثمان بن عفّان رضي الله عنه في حاجة له، وذكر القصة بتمامها ثم قال: قال الطبراني – بعد ذكر طرقه–: والحديث صحيح" هذا كلام الحافظ المنذري بنصّه، وكذا نقل تصحيح الطبراني ووافقه الحافظ الهيثمي في باب صلاة الحاجة من (مجمع الزوائد) كما وافق على تصحيح الحديث أيضًا الحافظ أبو عبد الله المقدسي صاحب (المختارة) والحافظ عبد الغني المقدسي في كتاب (النصيحة) والإمام النّووي في باب أذكار صلاة الحاجة من كتاب (الأذكار) وابن تيمية في غير موضع من كتبه، والحافظ السّخاوي في (القول البديع) والحافظ السيوطي في (الخصائص الكبرى) وغيرهم.

فيتلخّص من جميع ما تقدّم أمران: **أحدهما**: أن حديث توسل الضّرير مُخَرَّج في كتب السّنّة المشهورة المعتبرة، ناهيك بمسند الإمام أحمد وسنن التّرمذي والنسائي وابن ماجه، وصحيحي ابن خزيمة والحاكم، **ثانيهما**: أنّه حديث صحيح متفق على صحته بين حفاظ الحديث ونقّاده، لم يخالف في ذلك منهم أحد إلاّ أن ابن تيمية – مع اعترافه بصحّته– حاول أن يعل بعض ألفاظه بعلل واهية سنعرض لإبطالها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

باب في ذكر ما أورد على الحديث من الاعتراضات، والجواب عنها

لما كان هذا الحديث شجى في حلوق الوهابيين، وقذى في عيونهم، حاولوا الانفصال عنه، والتّخلّص منه، إلاّ أنّهم لم يُوَفَّقوا في محاولتهم، فأتوا بكلام سمج بارد، يدل على جهلهم بالقواعد، وتعصّبهم لرأيهم الفاسد، وخبطوا خبط عشواء، وتاهوا في ضلالة عمياء، والحديث – كما هو– ثابت البنيان، شامخ الأركان، لم يمسّوا من جوانبه إلاّ ما زاده وضوحًا وثبوتًا، فما أجدرهم بقول القائل:

كناطح صخرةٍ يومًا ليوهنها فلم يضرُّها وأوهى قرنه الوعل

ونحن نورد من اعتراضاتهم ما يكون أشبه بالقواعد، وأقرب إلى العقل والمنطق، وهي تنحصر في وجوه:

الأوّل: تمسَّكوا بقول التّرمذي في أبي جعفر: وهو غير الخطمي، قالوا: فيكون أبو جعفر مجهولًا، وحديث المجهول ضعيف.

وهذا وجه باطل مردود، لأنّ الطّبراني وابن أبي خيثمة والحاكم والبيهقي صرَّحوا جميعًا – كما تقدّم– بأن أبا جعفر هو الخطمي المدني، وتقدَّم أيضًا أن ابن تيمية قال: "سائر العلماء قالوا هو أبو جعفر الخطمي وهو الصَّواب"ا.هـ. وأبو جعفر الخطمي ثقة معروف، تقدَّم اسمه ونسبه وتوثيقه في بعض ما سردناه من طرق الحديث.

الثَّاني: قالوا: اشتمل الحديث على معجزة هي رد بصر الأعمى، وذلك ممّا تتوفّر الدّواعي على نقله، فيبعد أن ينفرد بروايته عثمان بن حنيف دون سائر الصّحابة، ثم يُروى بطريق الآحاد مع اشتماله على ذلك الحادث العظيم، فهذا – في دعواهم– يدل على عدم صحة الحديث، إذ لو كان صحيحًا لتبادر نَقَلَة الأخبار ورُوَاة الآثار

إلى نقله وروايته، وهذا أيضًا وجه باطل مردود، بل هو أشد بطلانًا من سابقه، وذلك أنّه ليس من شرط كل معجزة أن تنقل بطريق التَّواتر أو الاستفاضة والشّهرة، ولم يشترط ذلك أحد من علماء الحديث والأصول، بل فيها المتواتر وفيها المشهور، وفيها الآحاد، كما لا يخفى على من تتبّع كتب السّنّة المطهّرة، فهذا حديث تسبيح الطّعام، وإخبار الذّراع بأن فيها سمًّا، مرويّين بطريق الآحاد مع أنّهما أعظم من رد بصر الأعمى، لأن نطق الجماد أمر لم يعهد في العادة أصلًا، بخلاف رد بصر الأعمى فإنّه مع كونه غريبًا يقرّبه أن البصر من شأن الإنسان ووصف من صفاته، وقد عهد رد بصر الأعمى بعد ذهابه لعارض من العوارض باستعمال بعض الأدوية كطريقة القدح المعروفة عند أطبّاء العرب من قديم، ولا يزال إلى الآن عندنا بالمغرب فرقة متخصّصة في هذا، تداوي من عمي لعارض فيرجع إلى حالته الأصليّة، وقد شاهدنا –كما شاهد غيرنا– أناسًا أُصيبُوا بفقد بصرهم فقدًا نهائيًّا ثمّ عُولِجُوا بطريقة القدح أو غيرها فعاد إبصارهم كما كان، وهذا الضَّرير الّذي لجأ إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يُولَد أكمه، ولكن طرأ عليه ذهاب البصر لعارض بدليل قوله: ﴿ شق عليّ ذهاب بصري ﴾، فليس في رد بصره والحالة هذه من الغرابة ما يوازي تسبيح الطّعام المطبوخ، وإخبار الذّراع المشويّة وتسليم الحجر وغير ذلك ممّا لم يتواتر من أنواع المعجزات الَّتي صحّحها العلماء، وقبلوها واحتجُّوا بها، كما صحّحوا حديث الضَّرير، وقبلوه، واحتجُّوا به.

نعم: عند الأصوليّين قاعدة لم يحسن فهمها الوهابيون، فأخطأوا في تطبيقها على هذا الحديث، وتلك القاعدة: أنَّ الخبر المنقول آحادًا فيما تتوفَّر الدَّواعي على نقله تواترًا يقطع بكذبه، ففي جمع الجوامع للتَّاج السُّبكي، وشرحه للجلال المحلّي في الكلام على ما يقطع بكذبه من الأخبار ما نصَّه: "والمنقول آحادًا فيما تتوفَّر

الدَّواعي على نقله تواترًا كسقوط الخطيب عن المنبر وقت الخطبة، من المقطوع بكذبه لمخالفته للعادة، خلافًا للرافضة".

أي في قولهم لا يقطع بكذبه، لتجويز العقل صدقه، وقد قالوا بصدق ما رووه منه في إمامة علي رضي الله عنه، نحو ﴿ أنت الخليفة من بعدي ﴾ مشبِّهين له بما لم يتواتر من المعجزات كحنين الجذع، وتسليم الحجر، وتسبيح الحصى، قلنا: "هذه كانت متواترة، واستغنى عن تواترها إلى الآن بتواتر القرآن، بخلاف ما يذكر في إمامة علي فإنه لا يعرف، ولو كان ما خفي على أهل السّقيفة"ا.هـ.

قُلتُ: ادّعاء أنّ هذه المعجزات كانت متواترة، لا يسلّم، فالصَّواب في الجواب أن يُقَال: استغنى عن تواتر ما نقل آحادًا من المعجزات بتواتر القرآن، وهذا جواب مطرد في جميع الصُّوَر.

وأجاب الأسنوي بجواب آخر وهو: "أنّ هذه المعجزات لم تتواتر، لقلّة المشاهدين لها. لكن قال: وللشّيعة أن يجيبوا بهذا الجواب، فيقولوا: إنّما لم يتواتر النّص الدّال على إمامة علي رضي الله عنه لقلّة سامعيه"ا.هـ.

قُلتُ: قد يمنع جوابهم بأنّ الغرض من النّص على إمامة معيّن، منع الخلاف وقطع النِّزَاع، وذلك يقتضي أن يقصد الشَّارع إخبار جماعة الصَّحابة بأنّ الإمام هو فلان، لينتهوا عند قوله، لا إخبار فرد أو اثنين، وهذا بخلاف المعجزات فإن الغرض منها – وهو الدَّلالة على صدق الرّسول– حصل بالقرآن، وبما تواتر منها كالإسراء والمعراج ونحوهما.

وقال الشّهاب القرافي – في شرح تنقيح الفصول–: "والمعجزات جمعت بين الغرابة لكونها من خوارق العادات، والشَّرَف لأنَّها أصل النُّبُوَّات، فإذا لم يتواتر شيء من ذلك، ولم ينقله إلا واحد، دل على كذب الخبر إن كان قد حضره جمع عظيم، ولم

يقم غيره مقامه في حصول المقصود منه، فالقيد الأوّل احتراز من انشقاق القمر، فإنّه كان ليلًا، ولم يحضره عدد التَّواتر، والقيد الثَّاني احتراز عن بقية معجزات الرَّسُول صلى الله عليه وآله وسلم كنبع الماء من بين أصابعه، وإشباع العدد العظيم من الطَّعام القليل، فإنّه حضره الجمع العظيم، غير أنّ الأمّة اكتفت بنقل القرآن، وإعجازه عن غيره من المعجزات، فنقلت آحادًا مع أنّ شأنها أن تكون متواترة"ا.هـ.

وحديث الضَّرير لم يحضره عدد عظيم، مع قيام غيره مقامه وهو القرآن العظيم، فإنّ إعجازه – مع تواتره– كاف عن سائر المعجزات، فلا يجوز دخوله في القاعدة المذكورة، ولا يمكن أن تنطبق عليه أبدًا بحال، وإنّما تنطبق على مثل ما يُحكَى عن الولي الكبير الشّيخ أحمد الرّفاعي أنّه لمّا حج وزار، وقف تجاه الرَّوضة الشَّريفة وقال:

فِي حَالَةِ البُعْدِ رُوحِي كُنْتُ أُرْسِلُهَا تُقَبِّلُ الأَرْضَ عَنِّي وَهِيَ نَائِبَتِي

وَهَذِهِ نَوْبَةُ الأَشْبَاحِ قَدْ حَضَرَتْ فَامْدُدْ يَمِينَكَ كَيْ تَحْظَى بِهَا شَفَتِي

فخرجت اليد الشّريفة من القبر الشَّريف، فقبَّلها والنّاس ينظرون، وقيل إن هذه الحادثة وقعت للشّيخ علي أبي شباك الرّفاعي دفين القلعة بالقاهرة، وسواء أوقعت لهذا، أو لذاك، فهي مقطوع بكذبها، لأنّ هذا الحادث العظيم تتوفَّر الدَّواعي على نقله تواترًا، وقد ذكر ناقل هذه القصّة أنّه شاهدها جمع كبير حزروا بخمسين ألفًا، وأن ممّن شهدها العارف الكبير الشّيخ عبد القادر الجيلي، وهَنَّأ الشّيخ الرِّفَاعي بهذه المنقبة العظيمة!!

وهذا ممّا يُؤيِّد القطع بكذب هذه القصّة، إذ كيف يحضرها خمسون ألفًا أو أكثر أو أقل، ثم لا يرويها منهم إلاَّ واحد أو اثنان من أغمار النَّاس ومجاهيلهم؟! وكيف لا يشير إليها الشّيخ عبد القادر الجيلي في شيء من دروسه، ولا مؤلّفاته بطريق يعتمد

عليه؟!! ولم يذكرها الشَّعراني في الطَّبقات، مع إنّه يذكر ما هو أقل شأنًا منها بكثير، وقد رأيت رسالة مطبوعة – في إثبات هذه الحكاية– منسوبة للحافظ السُّيُوطي، ولا تصح نسبتها إليه[1]، وما أكثر ما نُسِبَ للحافظ السُّيوطي من الكتب الَّتي لم يؤلِّفها ككتاب الكنز المدفون والفلك المشحون المنسوب إليه، وهو للشيخ يونس السُّيُوطي المالكي تلميذ الحافظ الذَّهبي، وككتاب الرَّحمة في الطب والحكمة، نسب إليه في سائر النُّسخ المطبوعة، وهو للحكيم المقري مهدي الصبري، وغير ذلك كثير.

الثَّالث: قالوا: أنَّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا لذلك الضَّرير، فهو توسُّل بدعائه، وهو جائز لا نزاع فيه، وهذا أيضًا باطل، لأنّ عثمان بن حنيف لم يذكر دعاءً للنَّبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الموطن، بل صرَّح بقوله: ﴿ فو الله ما تفرَّقنا ولا طال بنا الحديث حتّى دخل الرَّجُل كأنَّه لم يكن به ضر قط ﴾، فهذا صريح في نفي حصول دعاء من النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا ترجم البيهقي على الحديث بقوله – كما تقدم–: "باب ما جاء في تعليمه الضَّرير ما كان فيه شفاؤه حين لم يصبر"ا.هـ. وأيضًا فقد دعا صلى الله عليه وآله وسلم لأناس كثيرين، طلبوا منه الدُّعاء في عدّة مناسبات، ولم يرشدهم إلى ما أرشد إليه هذا الضَّرير من الصَّلاة والدُّعاء، فدل على أنَّه أراد في حديث الضَّرير تشريعًا جديدًا يكون عامًّا لسائر الناس، ولا يختص بالمدعو له فقط.

فإن قيل: فكيف تفعل بقوله صلى الله عليه وآله وسلم للضَّرير: ﴿ إن شئت صبرت فهو خيرٌ لك، وإن شئت دعوت ﴾.

(1) نعم، نقل السُّيُوطي هذه الحكاية في كتابه (تنوير الحلك) عن بعض المجاميع!!

قُلتُ: هذا شبهة من قال أنّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا له، لكن لمَّا أرشده صلى الله عليه وآله وسلم إلى الصَّلاة، ولقَّنه الدُّعاء، علمنا أنّ في الكلام مجازًا، وأنّ معنى ﴿ وإن شئت دعوت ﴾ أي وإن شئت علَّمتك دعاء تدعو به، ولقَّنتك إيَّاه، وهذا التَّأويل واجب ليتَّفِق أوَّل الحديث مع آخره، ثم بعد هذا كلّه لو سلَّمنا أنّ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا للضَّرير، فذلك لا يمنع من تعميم الحديث في غيره، كما يأتي بيانه بحول الله تعالى.

الرابع: قالوا: إنَّ عمر رضي الله عنه استسقى عام الرمادة فقال: اللهم إنَّا كنَّا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، ادع يا عباس، فدعا العباس فسقاهم الله، فهذا دليل على أن الحديث خاص بحال الحياة وأن التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته لا يجوز، وقد أكثر ابن تيمية من الاستدلال بأثر عمر هذا في مؤلفاته وكرره وأعاده، المرة بعد المرة، وهو لا يفيد بشيء، لأن ما فعله عمر رضي الله عنه هو المطلوب في الاستسقاء، لأن السنة وردت بخروج الإمام والناس إلى المصلَّى بظاهر البلد، ويصلوا صلاة الاستسقاء ويخطب فيهم الإمام ويدعو بنفسه، كما كان يفعل النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم، أو يأمر من يدعو كما فعل عمر مع العباس، ومعاوية مع يزيد بن الأسود.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يتوسَّل عمر رضي الله عنه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في المصلَّى؟ وعدل عنه إلى التوسل بالعباس رضي الله عنه.

فالجواب على ذلك من وجوه: **أحدها**: أن عمر لم يبلغه حديث توسل الضرير، ولو بلغه لتوسل به، وقد خفى كثير من السنة على عمر وغيره من كبار الصحابة، وعلمها صغارهم كابن عباس وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة، وقد اعتذر عمر رضي الله عنه، في بعض السنن التي خفيت عليه بقوله: ألهانا الصفق بالأسواق، يعني أنه

كان يشتغل بالتجارة، وكذلك أبو بكر رضي الله عنه خفيت عليه سنن، وجد علمها عند المغيرة بن شعبة وأمثاله.

ثانيها: أن التوسل بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ليس بواجب، فيجوز تركه، والعدول إلى غيره.

ثالثها: أن الله تعالى يقول ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ الآية، ولا شك أن العباس كان إذ ذاك من جملة المضطرين، فكان التوسل به أولى وأنسب.

رابعها: أن عمر رضي الله عنه أراد بالتوسل بالعباس رضي الله عنه الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، في إكرام العباس وإجلاله، وقد جاء هذا صريحًا عن عمر، فروى الزبير بن بكار في الأنساب من طريق داود عن عطاء عن زيد بن أسلم عن ابن عمر قال: استسقى عمر بن الخطاب عام الرمادة بالعباس بن عبد المطلب فخطب الناس عمر فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد، فاقتدوا أيها الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واتخذوه وسيلة إلى الله.

قال: فما برحوا حتى سقاهم الله، ورواه البلاذري من طريق هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه به.

خامسها: أراد عمر رضي الله عنه، بفعله ذلك أن يبين جواز التوسل بغير النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أهل الصلاح والخير ممن ترجى بركته، ولهذا قال الحافظ في فتح الباري – عقب قصة توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما– ما نصه: "يستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الصلاح والخير وأهل بيت النبوة"ا.هـ.

سادسها: أنَّ توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما هو في الحقيقة توسل بالنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّه إنّما توسل بالعباس لكونه عم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ولمكانته منه، كما جاء صريحًا في كلام عمر والعباس.

أما كلام عمر ففي البخاري عن أنس أن عمر رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقال: اللهم استسقي بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه وآله وسلم فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون، هذا لفظ البخاري، فقوله: وإنا نتسول إليك بعم نبينا، صريح فيما قلناه، وأصرح منه ما ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب حيث قال ما نصه: "وروى ابن عباس وأنس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحط أهل المدينة استسقى بالعباس، وكان سبب ذلك أن الأرض أجدبت اجدابًا شديدًا على عهد عمر زمن الرمادة، وذلك سنة سبع عشرة، فقال كعب: يا أمير المؤمنين إنَّ بني إسرائيل كان إذا أصابهم مثل هذا، استسقوا بعصبة الأنبياء، فقال عمر: هذا عم رسول الله، وصنو أبيه، وسيد بني هاشم، فمشى إليه عمر وشكا إليه ما فيه الناس من القحط، ثم صعد المنبر ومعه العباس فقال: اللهم إنا توجهنا إليك بعم نبينا وصنو أبيه، فاسقنا الغيث، ولا تجعلنا من القانطين، ثم قال عمر: قم يا أبا الفضل فادع"ا.هـ. وقال أيضًا ما نصه: "روينا من وجوه عن عمر أنه خرج يستسقي وخرج معه العباس فقال: اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك صلى الله عليه وآله وسلم، ونستشفع به، فاحفظ فيه لنبيك صلى الله عليه وآله وسلم، كما حفظت الغلامين لصلاح أبيهما، وذكر بقية الخبر وفي آخره: فو الله ما برحوا حتى اعتلقوا الجدر، وقلصوا المآزر، وطفق الناس بالعباس يمسحون أركانه ويقولون: هنيئًا لك ساقي الحرمين"ا.هـ.

وأما كلام العباس نفسه فأخرج الزبير بن بكار في الأنساب بإسناده أن العباس لما استسقى به عمر قال: اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يُكشَف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث، فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس، ذكره الحافظ في فتح الباري.

فهذه النصوص صريحة فيما قدمناه من أن عمر توسل بالعباس لمكانته من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقرابته منه، فهو توسل به في الحقيقة، ولم يقصد عمر منع التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، يؤيد ذلك ويؤكده ما رواه البيهقي في (دلائل النبوة) قال: أنبأنا أبو نصر بن قتادة وأبو بكر الفارسي قالا أخبرنا أبو عمر ابن مطر حدثنا إبراهيم بن علي الذهلي ثنا يحيى أنبأنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح السمان عن مالك الدار – وكان خازن عمر– قال: أصاب الناس قحط في زمان عمر رضي الله عنه فجاء رجل إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، فقال: ائت عمر فأقرئه السلام، وأخبره أنهم مسقون، وقل له: عليك الكيس الكيس، فأتى الرجل عمر فأخبره، فبكى عمر رضي الله عنه ثم قال: يا رب ما آلوا إلا ما عجزت عنه، اسناده صحيح، ورأيت الحافظ في (فتح الباري) – ج 2، ص 338، طبعة الخشاب– عزاه إلى ابن أبي شيبة من طريق أبي صالح السمان عن مالك الدار، باللفظ المذكور[1] وصحح سنده، والرجل المذكور هو بلال بن الحارث

(1) وذكر ابن تيمية هذا الأثر فزاد فيه زيادة لم ترد في طرقه، قال في (اقتضاء الصراط المستقيم) أثناء كلام ما نصه: "وكذلك ما يُروَى أن رجلًا جاء إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فشكا إليه الجدب عام الرمادة فرآه وهو يأمره أن يأتي عمر فيأمره أن يخرج يستسقي بالناس"ا.هـ. وهذا من تحريفات ابن تيمية التي يتعمدها لغرض في نفسه، وغرضه

المزني الصحابي، كما رواه سيف في (الفتوح)، ونقله الحافظ في (الفتح)، فعمر رضي الله عنه لم ينه بلال بن الحارث عما فعل، ولا أنَّبَه ولو كان التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ممنوعًا في اجتهاده لما سكت عن بلال، بل لصارحه بالنهي، وصكه به صك الجندل وشدة عمر رضي الله عنه فيما يراه حقًا، معروفة، لا تحتاج إلى استدلال.

الخامس: أعلّ ابن تيمية رواية ابن أبي خيثمة من طريق حماد بن سلمة بزيادة ﴿ فإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك ﴾ – وهي زيادة صحيحة، إسنادها على شرط الصحيح– فأعلَّ هذه الزيادة بعلل واهية لا يليق صدورها من عالم بالصناعة الحديثية، ونحن نناقشها مناقشة علمية، بمقتضى القواعد الصناعية، قال ابن تيمية: "لم يرو هذه الزيادة شعبة وروح بن القاسم وهما أحفظ من حماد"، قلنا: فكان ماذا؟ أليس حماد ثقة من رجال الصحيح؟ وزيادة الثقة مقبولة، قال: "اختلاف الألفاظ يدل على أن مثل هذه الرواية قد تكون بالمعنى"، قلنا: تعبيرك بقد دليل على أنك لست متحققًا من صحة دعواك ولن تستطيع تحقيقها، لأنك تعلم أن أحدًا من العلماء لم يجز أن يزاد في الحديث ما ليس منه، سواء في ذلك من أجاز الرواية بالمعنى ومن منعها، قال: "قد تكون مدرجة من كلام عثمان"، قلنا: هذه دعوى كسابقتها، والادراج لا بد من دليل يدل عليه وأين هو هذا الدليل؟ قال: "ولو ثبت لم تكن فيها حجة، بل غايتها أن يكون عثمان بن حنيف ظنَّ أن الدعاء يدعى ببعضه دون بعض"، قلنا: بل هي حجة قاطعة لك ولأذنابك، وما تقولته على عثمان مبني على ظنك أنَّ النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم دعا لذلك الضرير، وظنك

=هنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يشفع لأحد بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، بدليل أنه في هذه الحادثة رد الأمر إلى عمر وأمره أن يستسقي بالناس، وإن رأيًا ينبني عن تحريف النصوص والزيادة فيها لرأي باطل عاطل.

باطل، ولو كان حصل دعاء من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لنقله عثمان الذي شاهد القصة ونقلها، ولو أراد عليه الصلاة والسلام أن يدعو للضرير لدعا له كما دعا لغيره[1]، من غير أن يحيله على الوضوء والصلاة والدعاء، ولو سلم أنه دعا فذلك لا يقتضي تخصيص الحديث ولا تقييده، كما هو ظاهر، قال: "هذه الزيادة تناقض الحديث"، قلنا: نعم، في نظرك ونظر أذنابك، أما عند العلماء المنصفين فهي منسجمة مع الحديث تمام الانسجام، وعلى دعواك أنها مدرجة، فهل كان عثمان من الغفلة والبلاهة بحيث يدرج في الحديث ما يناقضه وهو لا يشعر؟! إنَّ هذا لشيء عجيب!! قال: "أعرض أهل السنن عنها"، قلنا: فكان ماذا؟ وهل كل صحيح في السنن؟؟ فما هذا التعليل البارد الذي اخترعته لرد ما يخالف هواك؟ وتبعك عليه أذنابك، هذا مع أنك اعترفت فيما سبق بأن الترمذي ومن معه لم يستوعبوا لفظ الحديث كما استوعبه سائر العلماء، والآن تجعل عدم استيعابهم حجة تعلل بها زيادة صح سندها، فما هذا التناقض الغريب؟!!

(1) من ذلك ما رواه البيهقي عن يزيد بن نوح بن ذكوان أن عبد الله بن رواحة قال: يا رسول الله إني أشتكي ضرسي، آذاني واشتد علي، فوضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده على الخد الذي فيه الوجع، وقال: ﴿ اللهم أذهب عنه سوء ما يجد وفحشه بدعوة نبيك المبارك المكين عندك ﴾ سبع مرات، فشفاه الله تعالى قبل أن يبرح.

باب في دلالة الحديث على التوسُّل بالنبي عليه السلام

وإذ قد انتهينا من إبطال ما أورده الوهابيون على الحديث من الاعتراضات فلنبين دلالته على جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في جميع الأحوال، في حال حضوره وغيبته، وفي حال حياته وبعد وفاته! وذلك من وجوه:

الأول: أن هذا الحديث وإن كان قد ورد بسبب سؤال الضرير، فغيره مثله في ذلك للقطع الجازم باستواء الناس في الأحكام الشرعية.

الثاني: أن الخطاب في الحديث وإن كان متوجّهًا إلى الضّرير محمول على العموم من حيث الشرع، للإجماع المتيقن من جميع العلماء على أن خطابات الشارع محمولة على العموم، وإن كانت خارجة مخرج الخصوص، حتى يقوم الدليل على تخصيص شيء منها فيوقف عنده، وهو هنا مفقود.

الثالث: أن الضرير سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يدعو له، فعلمه الدعاء المذكور، فعدوله صلى الله عليه وآله وسلم عن الدعاء المطلوب منه إلى ما ذكر، دليل على أنه أراد أن يشرع لأمته حكمًا عامًّا لا يختص بواحد دون آخر.

الرابع: أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أرشد الضرير إلى الصلاة والدعاء، والصلاة مشروعة لجميع الناس بالإجماع، فكذلك هذا الدعاء يكون مشروعًا لجميع الناس أيضًا، والتفريق بينهما تعطيل لبعض الحديث من غير دليل، وهو تلاعب لا يقبل.

الخامس: ولو فرضنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا للضرير – مع أن الحديث لا يدل على ذلك أصلًا– فدعاؤه يدل على جواز التوسل في عموم الحالات، لما تقرر في علم الأصول: أنَّ فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم لشيء

يدل على جوازه، لأنه لا يفعل المحرم ولا المكروه، ويندب الاقتداء به فيه، لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾.

السادس: أن الحديث لو كان خاصًّا بالضّرير أو بحال الحضور دون الغيبة، أو في الحياة دون الممات، لَبَيَّنَهُ كما بَيَّنَ لأبي بردة أن الجذعة من المعز تجزئه، ولا تجزئ أحدًا غيره في الأضحية، متفق عليه من حديث البراء بن عازب.

السابع: أن الحديث لو كان خاصًّا بالضرير، أو بحالتي الحياة أو الحضور، ولم يُبَيِّن النَبيَ صلى الله عليه وآله وسلم ذلك، لكان فيه تأخير البيان عن وقت الحاجة، وهو ممنوع إذ هو تكليف بما لا يعلم.

الثامن: أنّ رواية ابن أبي خيثمة ﴿ فإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك ﴾ دالة على العموم كما لا يخفى.

التاسع: أنّ عثمان بن حنيف – وهو راوي الحديث وأعرف بالمراد منه– حمله على العموم، حيث أرشد الرجل الذي كانت له حاجة عند عثمان رضي الله عنه، – وطال انتظاره لقضائها – إلى الدعاء المذكور.

العاشر: أنّ الحديث أخرجه الترمذي في جامعه كما تقدم، وقد قال في كتاب العلل ما نصه: "جميع ما في هذا الكتاب من الحديث هو معمول به، وبه أخذ بعض أهل العلم، ما خلا حديثين، حديث ابن عباس: أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ جمع بين الظهر والعصر بالمدينة، والمغرب والعشاء من غير خوف ولا سفر ولا مطر ﴾، وحديث النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ﴿ إذا شرب الخمر فاجلدوه، وإن عاد في الرابعة فاقتلوه ﴾ وقد بَيَّنَا علة الحديثين في الكتاب"ا.هـ.

وهذا يدل على أنّ حديث توسل الضرير معمول به، لأنه لم يستثنه مع الحديثين اللذين استثناهما من جملة الأحاديث المعمول بها، على أنَّ ذينك الحديثين عُمِلَ بهما

أيضًا، فأخذ بالأول ابن سيرين، وأشهب من أصحاب مالك، وابن المنذر، والشاشي الكبير من أصحاب الشافعي، فأجازوا الجمع في الحضر للحاجة من غير الأعذار المعروفة، بشرط ألا يتخذ عادة، وهو دليل شاذلية المغرب في جمعهم أحيانًا بين المغرب والعشاء جمع تأخير إذا طال بهم مجلس الذكر، كما بينه أخي العلامة السيد محمد الزمزمي في كتاب (الانتصار لطريق الصوفية الأخيار) ولشقيقنا الحافظ أبي الفيض كتاب (إزالة الخطر عمن جمع بين الصلاتين في الحضر من غير خوف ولا مطر) أتى فيه من البحوث والمناقشات العلمية بالمعجب المطرب بحيث يعتبر أنفس ما كتب في هذا الباب، وهو مطبوع بمصر، وأخذ بالحديث الثاني من الحديثين الحافظ أبو محمد ابن حزم، وأسند في (المحلى) من طريق قاسم بن أصبغ عن عبد الله بن عمرو بن العاصي أنه قال: ائتوني برجل أقيم عليه حد في الخمر فإن لم أقتله فأنا كاذب.

الحادي عشر: أنَّ حفاظ الحديث ونقاده فهموا من الحديث العموم حيث ترجموا عليه في كتبهم بتراجم تفيد ذلك، فذكره الترمذي والحاكم والبيهقي في كتاب (الدعوات) على أنه من الدعوات المأثورة المشروعة، وذكره ابن ماجة والمنذري والهيثمي في كتاب الصلاة المأمور بها فيه داخلة في باب التطوع والنفل، وذكره النووي في باب أذكار صلاة الحاجة على أنَّه من جملة الأذكار التي تقال عند عروض حاجة، وهذا اتّفاق منهم على أن الحديث معمول به، وأنه عام لجميع الناس في جميع الحالات، ولو كان خاصًّا بالضّرير أو بحالة دون حالة لم يكن لذكرهم له في كتب الأحكام وغيرها فائدة، وَلَنَبَّهُوا على أنَّه غير معمول به كما نبهوا على غيره من الأحاديث التي تكون مخصوصة أو منسوخة، وهذا ظاهر جدًّا.

الثاني عشر: أنَّ الأصل الواجب في كلام الشارع استواء جميع الناس فيه، لا فرق بين شخص وآخر، ولا بين حالة وأخرى، إلا إذا قام الدليل على تخصيصه ببعض الأشخاص، أو الأزمان فيتبع، وإذا كان الأمر كذلك فادّعاء تخصيص الحديث بالضّرير، أو بحالتي الحضور أو الحياة خلاف الأصل، فيحتاج إلى دليل من مدعيه، والدليل لا يعدو أن يكون أحد أمور:

الأول: أن الدعاء المذكور في الحديث يوهم – الناس لو أخذ فيه بالعموم– أنه لابُدَّ في الدعاء التوسل بواسطة، وهذا محظور لأنه يناقض الآيات الدالة على أن الله تعالى لم يجعل بينه وبين عباده في الدعاء واسطة، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾، ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾، ولأنه يشبه عقيدة المشركين الذين اتخذوا وسطاء يتوسطون لهم إلى الله بزعمهم، فيكون الدعاء المؤدي إلى هذا المحظور محظورًا، وحيث ورد الأمر به عن الشارع في حادثة معينة وجب قصره عليها، فلهذا كان الحديث خاصًا بذلك الضرير.

الثاني: أن النداء والخطاب فيه بقوله: يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي، إنما يلقيان بالحي الحاضر دون الغائب أو الميت، فلهذا كان الحديث خاصًا بحالتي حضور النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحياته.

الثالث: أن الصحابة لم يتوسلوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد انتقاله، بل توسلوا بالعباس وغيره من الأحياء فكان تركهم للتوسل به صلى الله عليه وآله وسلم بعد انتقاله مع أنهم كانوا يتوسلون به في حياته وحضوره بينهم دليلًا على تخصيص الحديث بحالتي الحياة والحضور، هذا أمثل ما يحتمل من الأدلة القاضية بتخصيص الحديث في زعم الوهابيين، وذلك كله باطل.

أما الوجه الأول: فالإيهام المذكور فيه توهم وخيال، إذ لو كان في ذلك الدعاء أدنى إيهام لما خفى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي لقنه للضرير، وأمره أن يدعو به، وهو صلى الله عليه وآله وسلم إنما بعث للقضاء على الشرك وعلى كل ما يقرب إليه من قول أو عمل، فمحال عقلًا أن يلقن أحدًا من أمته شيئا يوهم نوعًا من الإشراك، أو يشبه عقيدة المشركين، فبطل هذا الوجه من أساسه.

وأما الوجه الثاني فيبطله أمور ثلاثة:

الأول: إجماع العلماء على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيٌّ في قبره، حكى الإجماع الإمام الحافظ أبو محمد ابن حزم في (المحلى) والحافظ شمس الدين السخاوي في (القول البديع) ولذا قرر المالكية أنَّ من تكلم في الصلاة إجابة له صلى الله عليه وآله وسلم فإنَّ صلاته لا تبطل على المعتمد سواء كان في حياته أو بعد انتقاله وألغز بعضهم في ذلك بقوله:

يا فقيها شخصٌ تكلم عمدًا في صلاة ولم يكن إصلاحًا

لصلاة وبعد هذا فقلتم تلك صحت وحاز هذا نجاحًا

الثاني: الأحاديث التي تدل على عرض أعمال أمته عليه، وأن علمه بعد انتقاله كعلمه في الدنيا، وهي مبسوطة في محلها من كتب الحديث والفضائل النبوية، وانظر كتابنا (نهاية الآمال في صحة حديث عرض الأعمال).

الثالث: إجماع الأمة المستفاد من النصوص المتواترة على قولهم في تشهد الصلاة: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وهذا نداء وخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد انتقاله، ومحال أن تجتمع الأمة على نداء ومخاطبة ميت لا يدري ولا يشعر، فبطل هذا الوجه أيضا من أساسه.

وأما الوجه الثالث فيبطله أمور:

الأول: أنَّ ترك الصحابة للتوسل بالنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعد انتقاله ليس مسلمًا على اطلاقه بل هو منقوض بفعل عثمان بن حنيف، وبلال المزني كما تقدم ذلك.

الثاني: أنَّ ترك الصحابة للتوسل – لو سلم على إطلاقه– يحتمل أن يكون اتفاقيًا أي اتفق أنهم تركوا التوسل من غير أن يكون ممنوعًا، ويحتمل أن يكون غير جائز في نظرهم، ويحتمل أن يكون جائزًا ولكن غيره أفضل منه، فتركوه إلى الأفضل، ويحتمل أن يكون تركهم له لئلا يتخذ عادة متبعة ويترك ما سواه من الأدعية والعبادات، ويحتمل غير ذلك من الوجوه التي بيناها في توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما والقاعدة: أن ما دخله الاحتمال سقط به الاستدلال.

الثالث: أن هذا ترك فعل، أي أن الصحابة تركوا التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد انتقاله، والترك وحده – إن لم يصحبه نص على أن المتروك محظور– لا يدل على ذلك، بل غايته أن يفيد ترك ذلك الفعل مشروع، أما أنَّ ذلك الفعل المتروك يكون محظورًا فهذا لا يستفاد من الترك وحده، وإنّما يستفاد من دليل يدل عليه، ومن هنا كان الاستدلال على منع تعدد الجمعة في البلد الواحد، بأنها لم تتعدد في عهد النَّبي صلى عليه وآله وسلم، ولا في عهد الخلفاء الراشدين ضعيفًا لما ذكرنا من أن ترك الشيء لا يدل على منع المتروك وحظره، وقد ذهب جماعة من العلماء منهم عطاء بن أبي رباح، وداود الظاهري، وابن حزم، وابن العربي المعافري المالكي، إلى جواز تعدد الجمعة في البلد الواحد، لحاجة ولغير حاجة، واستدلوا بعموم قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا

إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ولم يلتفتوا إلى أنها لم تتعدد في عهد الصحابة والتابعين، ولابن العربي في ذلك تأليف خاص، ذكره لنا مولانا الامام الشيخ الوالد رضي الله عنه.

فإن قيل ليس التعويل على مجرد ترك الصحابة للتوسل، بل على التفريق بين الحالين فإنهم كانوا في حياته صلى الله عليه وآله وسلم يتوسلون به، فلما انتقل تركوا التوسل به، هذا محط الفائدة ومناط الاحتجاج.

فالجواب: أن هذا لا يفيد أيضًا، لأن الحال في الجمعة كذلك أيضًا، فقد كان الصحابة من أهل العوالي وغيرهم يصلون الجماعات في مسجدهم فإذا كانت الجمعة تركوا مسجدهم وصلوا الجمعة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك كانوا يفعلون في عهد الخلفاء الراشدين، وهذه كانت شبهة من منع تعدد الجمعة لكنها لم تفدهم، إذ قد بَيَّنَ المُجَوِّزُون: أنَّ غاية ذلك أنهم تركوا التعدد وأقرهم النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، والخلفاء الراشدين من بعده، وهذا لا يدل على منع التعدد، وكذلك نقول هنا: غاية ما في الأمر أن الصحابة تركوا التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد انتقاله، وذلك لا يكفي دليلا على منع التوسل.

الرابع: لو سلم أنَّ الصحابة تركوا التوسل بالنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته فنهايته أن يكون إجماعا سكوتيًا – لأنه لم يصرح أحد منهم بمنع التوسل جزمًا– والإجماع السكوتي مختلف في حقيقته، وفي تسميته، وفي حجيته، فكيف يكون والحالة هذه مخصصًا لدليل شرعي لا خلاف في حجيته بين أحد من العلماء، وقال الامام العلامة علاء الدين القونوي في شرح التعرف – أثناء كلام له في هذا المعنى–: "وقد روى أبو القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب بإسناده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﷺ من صلى عَلَيَّ في يوم جمعة وليلة جمعة مائة من الصلاة قُضِي له مائة حاجة سبعين من

حوائج الآخرة وثلاثين من حوائج الدنيا، ووكل الله بذلك ملكًا يدخله على قبري كما تدخل عليكم الهدايا إن علمي بعد موتي كعلمي في الحياة ﷺ وهذا وأمثاله من الأخبار ترد على هؤلاء المبتدعة الذين نبغوا في زماننا ومنعوا التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته.

وقد جمع بعضهم كلامًا يتضمن نفي علمه صلى الله عليه وآله وسلم بعد الوفاة، ونقل بعضهم التفرقة بين حال حياته ووفاته فقال والتفريق بين الحياة والوفاة كان ثابتا عند الصحابة، فلهذا استسقى أمير المؤمنين عمر بالعباس قال: "ولولا أن هذا التفريق واضح عندهم لما عدل عمر رضي الله عنه – مع جلالته وكونه خليفة راشدا وكان يشاور أيضًا– عن قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى غيره هذا لفظ المبتدع[1] الجاهل الذي قامت عليه البينة بأشياء من هذا القبيل، وعزر على ذلك التعزير البالغ بالحبس والضرب والنفي وغير ذلك في شهور سنة خمس وعشرين وسبعمائة بالقاهرة المحروسة، وهذا الكلام من التفرقة بين الحالتين والاستناد فيه إلى استسقاء عمر بالعباس رضى الله عنهما ليس له وإنما هو لشيخه، فإنه لما أظهر القول بنفي التوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من سنين أورد عليه حديث الاستسقاء ففزع إلى التفرقة المذكورة ولا متشبث له في الحديث المذكور، فإنّ عمر رضي الله عنه إنَّما قصد أن يتقدم العباس رضي الله عنه ويباشر الدعاء بنفسه، وهذا لا يتصور حصوله من غير الحي، وأما التوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا نسلم أن عمر تركه بعد موته صلى الله عليه وآله وسلم، وتقديمه العباس ليدعو للناس لا ينفي جواز توسله به مع ذلك"ا.هـ.

(1) يعني به أحد تلاميذ ابن تيمية.

وحديث أنس الذي عزاه إلى أبي القاسم الأصبهاني، رواه أيضًا الديلمي وأبو عمرو بن منده في الأول من (فوائده)، وغيرهم وإسناده ضعيف لكن أحاديث عرض صلاتنا عليه صلى الله عليه وآله وسلم، بالغة مبلغ التواتر، وقول ذلك المبتدع ولولا أنّ هذا التفريق واضح عندهم لما عدل عمر عن قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى غيره يقال عليه: لئن عدل عنه عمر في هذه المناسبة — للوجوه التي مر بسطها– لقد لجأ إليه غيره من الصحابة في مناسبة أخرى، قال الإمام الدارمي في (سننه): حدثنا أبو النعمان ثنا سعيد بن زيد ثنا عمرو بن مالك النكري ثنا أبو الجوزاء أوس بن عبد الله قال: قحط أهل المدينة قحطًا شديدًا فشكوا إلى عائشة فقالت: انظروا قبر النّبيّ صلى الله عليه وآله فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف، ففعلوا فمطرنا مطرا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم، فسمي عام الفتق، أخرجه الدارمي تحت ترجمة: (باب ما أكرم الله به نبيه بعد موته)، وإسناده لا بأس به، وسعيد بن زيد – وإن تكلم فيه– من رجال مسلم، ووثقه ابن معين وغيره، قال صاحب (مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح) ما نصه: "قيل في سبب كشف قبره أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يستشفع به عند الجدب فتمطر السماء فأمرت عائشة رضي الله عنها وعن أبيها بكشف قبره مبالغة في الاستشفاع به فلا يبقى بينه وبين السماء حجاب"ا.هـ.

وبالضرورة كان في المدينة إذ ذاك صحابة وتابعيون فلم ينقل عن أحد منهم أنه أنكر عليها ذلك، قال العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي في شرح (عدة الحصن الحصين) بعد كلام في هذا المعنى، ما نصه: "وبالجملة فالتوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الشفاعة العظمى في حضوره وغيبته، مما لا توقف فيه"ا.هـ.

وقال ابن أبي الدنيا في كتاب (مجابي الدعاء) حدثنا أبو هشام محمد بن يزيد بن محمد بن كثير بن رفاعة قال جاء رجل إلى عبد الملك بن أبجر – وكان طبيبًا– فَجَسَّ بطنه، فقال: بك داء لا يبرأ، قال: ما هو؟ قال: الدبيلة، قال: فتحول الرجل فقال: الله الله ربي لا أشرك به شيئًا، اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك وربي يرحمني مما بي، قال: فَجَسَّ بطنه، فقال: قد برئت ما بك علة.

قلت: كان ابن أبجر حافظًا، وهو من رجال مسلم وأبي داود والترمذي والنسائي، وكان لا يأخذ أجرًا على العلاج، وثقه أحمد وابن معين وغيرهما وأثنوا عليه خيرًا، وبالله التوفيق.

خاتمة

تشتمل على مسائل:

المسألة الأولى: تكلم ابن تيمية في رسالة (زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور) على التوسل، وقسمه إلى أنواع ثلاثة، وأطال في النوع الأول والثاني ثم قال: "وأما القسم الثالث وهو أن يقول: اللهم بجاه فلان عندك، أو ببركة فلان، أو بحرمة فلان عندك، افعل بي كذا وكذا، فهذا يفعله كثير من الناس، لكن لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين وسلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء، ولم يبلغني عن أحد من العلماء في ذلك ما أحكيه إلا ما رأيت في فتاوي الفقيه أبي محمد ابن عبد السلام، فإنه أفتى أنه لا يجوز لأحد أن يفعل ذلك إلا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إن صح الحديث في النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومعنى الاستثناء قد روى النسائي والترمذي وغيرهما أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم علَّم بعض أصحابه أن يدعو فيقول: اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد يا رسول الله إني أتوسل بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها لي، اللهم فشفعه فيَّ"ا.هـ.

المراد منه، وقلده الشوكاني فحكى هذا القول عن عز الدين ابن عبد السلام، في رسالة (الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد) وإن لم يوافق على هذا الاستثناء بل ناقشه ورده، والواقع أن ابن تيمية أخطأ في هذا النقل، لأن فتوى عز الدين بن عبد السلام في الإقسام على الله بخلقه لا في التوسل، ونحن ننقل فتواه بنصها ليتبين المراد، جاء في (الفتاوي الموصلية) ما نصه: "الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله، نسخة أجاب عنها الشيخ الإمام العلامة شيخ الاسلام عز الدين ابن عبد السلام ابن أبي القاسم بن مهذب السلمي رضي الله عنه وأعاد علينا وعلى الكافة من بركاته.

مسألة: ما يقول وفقه الله تعالى – في الداعي يقسم على الله تعالى بعظيم من خلقه في دعائه كالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، والولي والملك؟ هل يكره له ذلك؟ أم لا، ثم ذكر عدة أسئلة، ثم قال: أجاب الشيخ رضي الله عنه: أما الدعاء فقد جاء في بعض الأحاديث أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علَّم بعض الناس الدعاء فقال أوله "قل: اللهم إني أقسم عليك بنبيك محمد نبي الرحمة" وهذا الحديث – إن صح– فينبغي أن يكون مقصورا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه سيد ولد آدم، وأن لا يقسم على الله تعالى بغيره من الأنبياء والملائكة والأولياء لأنهم ليسوا في درجته، وأن يكون هذا مما خصَّ به نبينا على علو درجته ومرتبته" هذا كلامه بحروفه، نقلناه من (الفتاوي الموصلية)، وهي تحت يدنا، وهكذا نقله أصحاب الخصائص كالحافظ السيوطي، والقسطلاني، وغيرهما، مستدلين به على أن الإقسام على الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم من خصوصياته، وهذا غير ما نحن فيه وهو التوسل إلى الله بجاهه مثلا بدون إقسام عليه.

فإن قيل: قد نقل البرزلي في (نوازله) كلام ابن عبد السلام، وحمل القسم فيه على التوسل، حيث قال – أثناء كلامه– ما نصه: "وتقدم جواب عز الدين في الإقسام على الله لأحد من خلقه، وأنه اختار أن لا يتوسل بأحد من خلقه إلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة، وتقدم ما فيه من مذهب غيره، وما ذكر في حكايات كثيرة من الوسيلة بالصالحين، فأحرى الملائكة والأنبياء"ا.هـ.، فظاهره أن القسم والتوسل واحد، وأصرح منه قول أبي عبد الله الفاسي: "إذا كان لا يراد بالقسم اليمين، لما علم من النهي عن القسم بغير الله تعالى، لم يبق إلا استعماله في معنى التوسل والاستشفاع والتأكيد به، وأطلق القسم على ذلك مجازا"ا.هـ. فعلى هذا لا يكون في نقل ابن تيمية خطأ لما تبين أن القسم بمعنى التوسل.

فالجواب من وجوه:

الأول: الراجح بل الواقع أن القسم غير التوسل كما صرح به الحطَّاب وأبو عبد الله القصار وغيرهما، لمغايرة حقيقة القسم للتوسل، وتباينهما، وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان.

الثاني: أنَّ الذين جعلوا القسم بمعنى التوسل اعترفوا بأن ذلك على سبيل المجاز لا الحقيقة[1]، والمجاز خلاف الأصل وإنما ارتكبوه لقرينة قامت عندهم، وهي النهي عن الحلف بغير الله تعالى لكنَّ النهي عند معظم العلماء للكراهة لا للتحريم بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ أفلح – وأبيه– إن صدق ﴾ ونحوه من الأحاديث، على أنَّ النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مستثنى من هذا النهي، فقد أجاز الإمام أحمد في إحدى الروايتين عنه، الحلف به، وأوجب الكفارة في حنثه، لأن الله تعالى أقسم به في قوله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[2] فإنَّ هذا قسم من الله بحياة رسوله، كما عليه أكثر المفسرين من السلف والخلف، قال ابن القيم: "بل لا يعرف السلف فيه نزاعًا"، قال: "فهو أهل أن يقسم به، القسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات"ا.هـ. ولأنه صلى الله عليه وآله وسلم أحد جزأي

---

(1) ولذلك رجح أبو عبد الله الفاسي في آخر كلامه إبقاء القسم في كلام عز الدين على حقيقته، ونص عبارته: "إن حملنا القسم على التوسل أشكل ما منعه ابن عبد السلام وإن حملناه على حقيقته أشكل ما روى عن معروف، والذي يزول به الإشكال أن يكون ابن عبد السلام أبقى القسم على حقيقته، ويكون حديث ﴿ أقسم عليك بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ إن صح مخصصا لحديث النهي عن الحلف بغير الله، وأما كلام معروف وما يشبهه فيحمل فيه القسم على التوسل ولا إشكال حينئذ والله تعالى أعلم"ا.هـ. بحروفه.

قلت: وما روي عن معروف الكرخي هو قوله لتلامذته: إذا كانت لكم عند الله حاجة فأقسموا عليه بي، أي فتوسلوا إليه بي.

(2) قال الحافظ السيوطي في كتابه (الإكليل في استنباط التنزيل) في الكلام على هذه الآية ما نصه: "واستدل بها أحمد بن حنبل على أن مَنْ أقسم بالنّبيّ صلى الله عليه وسلم لزمته الكفارة"ا.هـ. بلفظه.

الشهادة التي لا يتم إسلام الشخص إلا بها، وهذا مدرك عز الدين في جعله الإقسام به من خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يتفطن لذلك ابن تيمية وغيره ممن حمل كلامه عن التوسل.

الثالث: إنَّ واجب الأمانة العلمية يقضي على ابن تيمية أن ينقل كلام عز الدين بلفظه، ثم يحمل القسم فيه على التوسل كما فعل البرزلي، ويترك للقارئ أن يوازن بين رأيه ورأي من يخالفه في ذلك الحمل، أما أن يطلق القول بأن عز الدين يجعل التوسل بالنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من خصوصياته، قاطعا بذلك، غير ناظرًا إلى ما في حمل القسم على التوسل من الخلاف، فذلك تدليس لا يرضاه عالمٌ يحترم نفسه، ويعتز بكرامته العلمية، وأقل ما يقال فيه – مع كثير من التغاضي والتساهل، أنه خطأ.

المسألة الثانية: ذكر ابن تيمية في فتوى خاصة بالتوسل كتبها بمصر سنة 711 هجرية، ما نصه: "وقد نقل في منسك المروزي عن أحمد دعاء فيه سؤال بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا قد يخرج على إحدى الروايتين عنه في جواز القسم به وأعظم العلماء على النهي في الأمرين"ا.هـ.، ذكر في كتابه (قاعدة جليلة) أثر الرجل العليل الذي أتى إلى عبد الملك بن أبجر ليعالجه، وقد مر أواخر الباب السابق، وقال عقبه ما نصه: "فهذا الدعاء ونحوه قد روي أنه دعى به السلف، ونقل عن أحمد بن حنبل في منسك المروزي التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم"ا.هـ. فانظر – وفقك الله– كيف اعترف هنا بأنَّ السلف — ومنهم الإمام أحمد– توسلوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، في دعائهم، ثم وازنه بقوله في المسألة السابقة: لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين وسلف الأمة أنَّهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء، ولم يبلغني عن أحد من العلماء في ذلك ما أحكيه، إلى آخر ما سبق، تجد بينهما

تناقضًا واضحًا، ولا تنسى – إلى جانب هذا– ما قدمناه من توسل الرجل الذي كانت له إلى عثمان بن عفان حاجة، بإرشاد عثمان بن حنيف، وذهاب بلال المزني إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يستسقي به عام الرمادة، وإشارة عائشة أم المؤمنين على أهل المدينة، حين قحطوا، أن يكشفوا عن قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مبالغةً في الاستشفاع بهم، وكل هذا يدلك على أن ابن تيمية لا يسلك في بحوثه مسلك العالم المنصف الذي يحكي آراء مخالفيه بمنتهى الأمانة والدقة كما يفعل ابن حزم وغيره، بل يحاول – بمختلف الأساليب– أن يؤثر في قارئه ويوهمه بأنَّ رأيه فقط هو الصواب، وأنه لا يُعرف بين الصحابة والتابعين وسلف الأمة قول يخالف ما اختاره وذهب إليه، إلى آخر التهويلات التي اعتادها في كلامه للتأثير بها على قُرَّائه، بحيث يشعرك أنَّ رأيه إجماع، ثم لا يلبث أن يعترف – في غضون كلامه– بإثبات ما نفاه، وهدم ما بناه، ومن هنا كثر التناقض في كتب ابن تيمية بشكل لم يعهد في كتب غيره من العلماء، بل يتناقض في الكتاب الواحد عدة مرات فيصحح الحديث في موضع، ويعله في موضع آخر، وينفي وجود الخلاف في مسألة ثم يحكيه فيها بعد ذلك، وهكذا، وما هذا شأن العلماء المنصفين، وبالله التوفيق.

المسألة الثالثة: في ترجمة الصحابي راوي الحديث: هو عثمان بن حُنَيْف – بالتصغير– بن واهب بن العكيم بن ثعلبة بن الحارث بن مجدعة بن عمرو بن حبيش بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن أوس الأنصاري الأوسي، يكنى أبا عمرو، وقيل أبا عبد الله، قال الترمذي: شهد بدرًا، وتفرد بذلك، والجمهور على أنَّ أول مشاهده أحد، نعم أخوه سهل بن حنيف شهد بدرًا بلا خلاف، قال العسكري: شهد عثمان أحدًا وما بعدها.

روى عنه ابن أخيه أبو أمامة بن سهل بن حنيف، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وعمارة بن خزيمة بن ثابت ونوفل بن مساحق، وهاني بن معاوية الصدفي، ولَّاه عمر رضي الله عنه مساحة الأرضين وجبايتها وضرب الخراج والجزية على أهلها ووَلَّاه علي عليه السلام البصرة، فأخرجه طلحة والزبير رضي الله عنهما حين قدما البصرة، ثم قدم علي عليه السلام وكانت وقعة الجمل، قال ابن عبد البر: "ذكر العلماء بالأثر والخبر: أن عمر بن الخطاب استشار الصحابة في رجل يوجهه إلى العراق، فأجمعوا جميعًا على عثمان بن حنيف وقالوا: إن تبعثه على أهم من ذلك فإن له بصرًا وعقلًا ومعرفة وتجربة، فأسرع عمر إليه فولَّاه مساحة أرض العراق، فضرب عثمان رضي الله عنه على كل جريب من الأرض يناله الماء غامرًا وعامرًا درهمًا قفيزًا، فبلغت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر بعام، مائة ألف ألف، ونيفًا، ونال عثمان بن حنيف في نزول عسكر طلحة والزبير البصرة، ما زاد في فضله"ا.هـ. توفى رضى الله عنه بالكوفة في خلافة معاوية.

المسألة الرابعة: قال أبو عبد الله الفاسي المالكي في شرح (عدة الحصن الحصين): "وعلى اعتبار القياس عليه – يعني حديث توسل الضرير– يقال: كل من تصح شفاعته، يصح التوسل به، فيدخل غيره من الأنبياء، وكذلك الأولياء[1]"ا.هـ.

(1) وفي باب آداب الدعاء، من كتاب (نزل الأبرار – ص 37) ما نصه: "ومنها التوسل إلى الله سبحانه بالأنبياء ويدل عليه ما أخرجه الترمذي من حديث عثمان بن حنيف – وذكر حديث توسل الضرير– ثم قال: ومنها التوسل بالصالحين ويدل له ما ثبت في الصحيح أن الصحابة استسقوا بالعباس عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال: ومسألة التوسل بالأنبياء والصالحين مما اختلف فيه أهل العلم اختلافا شديدا بلغت النوبة إلى أن كفر بعضهم بعضًا أو بدع وضلل، والأمر أيسر من ذلك، وأهون مما هنالك وقد قضى الوطر منها صاحب كتاب (الدين الخالص) والعلامة الشوكاني في (الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد) وحاصلها: جواز التوسل بهم على ما ورد من الهيئات وعلى القصر على ما في الروايات، ولا يقاس عليه ولا يزاد عليه شيء، ولا نشك أن من لا يرى التوسل إخلاصًا لله

قلت: ورد في كل من النوعين حديث، فأما التوسل بالأنبياء فورد فيه ما رواه الطبراني في معجميه الكبير والأوسط قال: حدثنا أحمد بن حماد بن زغبة ثنا روح بن صلاح أخبرنا سفيان عن عاصم عن أنس رضي الله عنه قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد أمُّ علي رضي الله عنهما دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجلس عند رأسها فقال: ﴿ رحمك الله يا أمي، كنت أمي بعد أمي، تجوعين وتشبعينني، وتعرين تكسينني وتمنعين نفسك طيبا وتطعمينني، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة ﴾، ثم أمر أن تغسل ثلاثًا ثلاثًا، فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور، وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده، ثم خلع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قميصه فألبسها إياه، وكفنها ببرد فوقه، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلامًا أسود يحفرون فحفروا قبرها، فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده، وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاضطجع فيه وقال: "الله الذي يحي ويميت، وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها، بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين" وكبر عليها أربعًا، وأدخلها اللحد هو وأبو بكر رضي الله

=ليس عليه إثم ولا وزر، ومن توسل فما أساء، بل جاء بما هو جائز في الجملة، وكذلك ثبت التوسل بالأعمال الصالحة كما سبقت الإشارة إليه فيما تقدم، وبالجملة ليست المسألة مستحقة لمثل تلك الزلازل والقلاقل، ولكن مفاسد الجهل والتعصب، ومساوي التقليد والتعسف لا تحصى"ا.هـ.

قلت: صدق فيما قال، فإن التوسل كغيره من المسائل التي اختلف فيها العلماء، ولسنا نعيب من يرى تحريمه أو كراهته، بل نحن لا نوافق على كثير من توسلات العامة وأشباههم، ولكننا نعيب على تجار العقيدة وسماسرة العلم نغمتهم الكريهة التي دأبوا عليها وهي إكفار المتوسلين ورميهم بأنواع الشرك، والحكم بخروجهم عن ربقة الإسلام.

عنهما، إسناده حسن، وفاطمة بنت أسد صحابية فاضلة، قال الشعبي: أسلمت وهاجرت إلى المدينة وماتت بها، وقال الزبير بن بكار: هي أول هاشمية ولدت خليفة، ثم بعدها فاطمة الزهراء عليها السلام.

تنبيهان:

الأول: فاطمة بنت أسد هي إحدى الفواطم الواردة في الحديث الذي رواه ابن أبي عاصم من طريق أبي فاختة عن جعدة بن هبيرة عن علي عليه السلام قال: أهدي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حلة استبرق، فقال: ﴿ اجعلها خمرًا بين الفواطم ﴾ فشققتها أربعة أخمرة خمارًا لفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وخمارًا لفاطمة بنت أسد، وخمارًا لفاطمة بنت حمزة، قال الحافظ ابن حجر: ولم يذكر الرابعة ولعلها امرأة عقيل أخي علي رضي الله عنهما. قلت: واسمها فاطمة بنت شيبة بن ربيعة بن عبد شمس العبشمية، وقيل: فاطمة بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس العبشمية، أخت هند أم معاوية.

الثاني: فاطمة بنت أسد، هذه غير فاطمة بنت أبي الأسد المخزومية التي قطعها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسبب سرقة حلي، واستشفع أهلها وقومها إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بغير واحد حتى استشفعوا بأسامة بن زيد، حِبِّه وابن حِبِّه، فقال له النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ أتشفع في حد من حدود الله؟ ﴾ ولم يعفها من إقامة الحد عليها، وقيل اسمها فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد، أسلمت وبايعت، وأما التوسل بغير الأنبياء فورد فيه الحديث الذي رواه أحمد وابن ماجة وابن خزيمة في كتاب التوحيد والطبراني في الدعاء وأبو نعيم وغيرهم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ من خرج من بيته إلى الصلاة

فقال: اللهم إني أسالك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشرًا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة، وخرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تعيذني من النار وتغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك ﴿ ضعفه النووي في الأذكار وليس كذلك، بل هو حديث حسن كما صرح به الحافظ أبو الحسن بن المفضل المقدسي المالكي، والحافظ العراقي، والحافظ ابن حجر العسقلاني، وله مع هذا شاهد من حديث بلال عند ابن السني في عمل اليوم والليلة، ومن حديث أبي أمامة عند الطبراني في الدعاء، وهذا الحديث يفيد التوسل بحق أرباب الخير على سبيل العموم كما قال ابن عِلَّان الصديقي في شرح الأذكار وروى الطبراني بإسناد صحيح عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد مرسلًا: ﴿ كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستفتح بصعاليك المسلمين ﴾، وفي رواية: يستنصر بصعاليك المسلمين وتقدم خبر استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنهما.

وروى أبو يعلي من طريقين عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ ليأتين على الناس زمان يخرج الجيش من جيوشهم فيقال: هل فيكم من صحب محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم فيستنصرون به فينصرون، ثم يقال هل فيكم من صحب محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم فيقال: لا، فمن صحب أصحابه؟ فلو سمعوا به من وراء البحر لأتوه ﴾، قال الحافظ الهيثمي: "رجال الطريقين رجال الصحيح"ا.هـ. وفي أوسط معاجم الطبراني عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله سلم: ﴿ لن تخلو الأرض من أربعين رجلًا مثل خليل الرحمن فيهم تسقون وبهم تنصرون، ما مات أحد إلا أبدل الله مكانه آخر ﴾ قال سعيد: وسمعت قتادة يقول: لسنا نشك أن الحسن – يعني البصري– منهم، قال الحافظ

الهيثمي: "إسناده حسن"ا.هـ. ففي الحديث إرشاد الى الاستشفاع بالأبدال، وهم لا شك من الأولياء وفي الحديث الذي قبله الإقرار على الاستنصار بالصحابة والتابعين.

المسألة الخامسة: في أذكار تقال لقضاء الحاجة، أحببت أن أوردها مع الكلام عليها إتمامًا للفائدة.

فمنها: ما رواه الترمذي وابن ماجة والطبراني وعبد الرزاق الطبسي في كتاب (الصلاة) له عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ من كانت له إلى الله حاجة أو إلى أحد من بني آدم فليتوضأ وليحسن الوضوء وليصل ركعتين ثم ليثن على الله، وليصل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ليقل: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم. لا تدع لي ذنبًا إلا غفرته، يا أرحم الراحمين، ولا همًا إلا فرجته ولا حاجة هي لك رضا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين ﴾، زاد ابن ماجة بعد قوله: ﴿ يا أرحم الراحمين ﴾، ﴿ ثم يسأل من أمر الدنيا والآخرة ما شاء فإنه يقدر ﴾ قال الترمذي: "غريب، وفي إسناده مقال، وفائد يُضَعَّف في الحديث"ا.هـ. ورواه الحاكم مختصرًا، وزاد بعد قوله: ﴿ عزائم مغفرتك ﴾ ﴿ والعصمة من كل ذنب ﴾ وقال: "أخرجته شاهدًا، وفائد مستقيم الحديث"ا.هـ. ملخصًا، وذكره ابن الجوزي في (الموضوعات) وأعله بفايد، وقال الحافظ السخاوي – بعد كلام–: "وفي الجملة هو حديث ضعيف جدًا يكتب في فضائل الأعمال، وأما كونه موضوعًا فلا"ا.هـ.

وله شواهد ضعيفة، ستذكر فيما بعد.

ومنها: ما رواه الطبراني في (الدعاء) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ إذا طلبت حاجة وأردت أن تنجح فقل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، العلي العظيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب السماوات والأرض ورب العرش العظيم، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ، فهل يهلك إلا القوم الفاسقون، اللهم إني أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة والنجاة من النار، اللهم لاتدع لي ذنبا إلا غفرته، ولا هما إلا فرجته، ولا حاجة هي لك رضاء إلا قضيتها يا أرحم الراحمين ﴾ في سنده أبو معمر عباد بن عبد الصمد، وهو ضعيف جدًا.

ومنها: ما رواه الأصبهاني في (الترغيب) عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ يا علي ألا أعلمك دعاء إذا أصابك غم أو هم تدعو به ربك، فيستجاب لك بإذن الله، ويفرج عنك: توضأ وصل ركعتين واحمد الله واثن عليه، وصلِّ على نبيك، واستغفر لنفسك وللمؤمنين والمؤمنات، ثم قل: اللهم أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون لا إله إلا الله العلي العظيم، لا إله إلا الله الحليم الكريم سبحان الله رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، اللهم كاشف الغم، مفرج الهم، مجيب دعوة المضطرين إذا دعوك، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، فارحمني في حاجتي هذه بقضائها ونجاحها رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك ﴾ إسناد ضعيف.

ومنها: ما رواه الديلمي في (مسند الفردوس) من طريق شقيق بن ابراهيم البلخي العابد المشهور عن أبي هاشم عن أنس عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ من كانت له حاجة إلى الله فَلْيُسبغ الوضوء وَلْيُصَلِّ ركعتين يقرأ في الأولى بفاتحة

الكتاب وآية الكرسي، وفي الثانية بفاتحة الكتاب وآمن الرسول، ثم يتشهد ويسلم ويدعو بهذا الدعاء: اللهم يا مؤنس كل وحيد، ويا صاحب كل فريد، ويا قريبًا غير بعيد، ويا شاهدا غير غائب، ويا غالبًا غير مغلوب، ويا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، يا بديع السماوات والأرض، أسألك باسمك الرحمن الرحيم، الحي القيوم الذي عنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات، ووجلت له القلوب من خشيته، أن تصلي على محمد وعلى آل محمد، وأن تفعل بي كذا وكذا، فإنه تقضي حاجته ﴿ أبو هاشم – واسمه كثير بن عبد الله الأيلي– متروك الحديث ضعيف جدًا.

ومنها: ما رواه عبد الرزاق الطبسي في كتاب (الصلاة) له عن أنس أيضًا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأم أيمن: ﴿ إذا كانت لك حاجة وأردت نجاحها فصلي ركعتين تقرئين في كل ركعة الفاتحة وتقولين: سبحان الله والحمد الله ولا إله إلا الله والله أكبر، كل واحدة عشرًا، فكلما قلت شيئًا من ذلك قال الله عز وجل: هذا لي قد قبلته، فإذا فرغت منها وتشهدت فاسجدي قبل السلام، وقولي وأنت ساجدة: يا الله أنت الله لا غيرك، يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، صل على محمد، وعلى آله الطيبين الأخيار، واقض حاجتي هذه يا رحمن، واجعل الخيرة في ذلك. إنَّك على كل شيء قدير، يا أم أيمن إن العبد إذا ذكر الله في السراء ونزل به ضر، قالت الملائكة: صوتًا معروفًا، اشفعوا له إلى ربه عز وجل وأمنوا على دعائه، فيكشف الله عنه، ويقضي حاجته ﴿ قال الحافظ السخاوي: "سنده واه بمرة"ا.هـ.

ومنها: ما رواه ابن الجوزي في (الموضوعات) من طريق أبان بن أبي عياش عن أنس عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ من كان له إلى الله حاجة عاجلة أو آجلة، فليقدم بين يديه صدقة، فليصم الأربعاء والخميس والجمعة، ثم يدخل يوم الجمعة إلى الجامع فليصل اثنتى عشرة ركعة يقرأ في عشر ركعات في كل ركعة: الحمد

مرة، وآية الكرسي عشر مرات، ويقرأ في الركعتين الحمد مرة، وقل هو الله أحد خمسين مرة، ثم يجلس ويسأل الله حاجته فليس يرده من حاجة عاجلة أو آجلة إلا قضاها له ﴿ قال ابن الجوزي: أبان متروك، قلت: أبان واه بمرة، على صلاحه.

ومنها: ما رواه الحاكم والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ اثنتا عشرة ركعة تصليهن من ليل أو نهار وتتشهد بين كل ركعتين فإذا تشهدت في آخر صلاتك فاثن على الله عز وجل، وصَلِّ على النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم واقرأ وأنت ساجد فاتحة الكتاب سبع مرات وآية الكرسي سبع مرات، وقل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات، ثم قل اللهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك واسمك الأعظم وجدك الأعلى وكلماتك التامة، ثم سل حاجتك، ثم ارفع رأسك، ثم سلم يمينًا وشمالًا، ولا تعلموها السفهاء، فإنّهم يدعون فيستجابون ﴾ قال الحاكم: قال أحمد بن حرب: قد جربته فوجدته حقًا، وقال إبراهيم بن علي الدبيلي قد جربته فوجدته حقًا، وقال لنا أبو زكريا قد جربته فوجدته حقا، قال الحاكم: قد جربته فوجدته حقًا.

قلت: لكن سنده واه بمرة كما قال الحافظ السخاوي، وذكره ابن الجوزي في الواهيات، ونقل الحافظ المنذري عن شيخه الحافظ أبي الحسن المقدسي: "أنَّ الاعتماد في مثل هذا على التجربة لا على الإسناد"ا.هـ.

لكن لا يعتقد مع ذلك وروده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لئلا يقع في وعيد الكذب عليه، وأصح الطرق هذا الحديث – كما قال الحافظ السخاوي– ما رواه هشيم بن أبي ساسان عن ابن جريج عن عطاء قوله، وليس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ومنها: ما رواه أبو موسى المديني وأبو عبد الله النميري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: من كانت له إلى الله حاجة فليصم يوم الأربعاء والخميس والجمعة فإذا كان يوم الجمعة تطهر وراح إلى المسجد، فتصدق بصدقة قلَّت أو كثرت فإذا صلى الجمعة قال: اللهم إني أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم، أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، الذي ملأت عظمته السماوات والأرض وأسألك باسمك الله الرحمن الرحيم الذي لا إله إلا هو، الذي عنت له الوجوه، وخشعت له الأبصار، ووجلت له القلوب من خشيته أن تصلي على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأن تقضي حاجتي وهي كذا وكذا فإنه يستجاب له إن شاء الله تعالى، قال: وكان يقال لا تعلموه سفهاءكم، لئلا يدعوا به في مأثم أو قطيعة رحم، وهذا موقوف على ابن عمر.

ومنها: ما رواه الدينوري في (المجالسة) عن الحسن البصري أنه قال: هذا الدعاء هو دعاء الفرج ودعاء الكرب، يا حابس يد إبراهيم عن ذبح ابنه وهما يتناجيان اللطف يا أبت يا بني، يا مقيض الركب ليوسف في البلد القفر وغيابه الجب وجاعله بعد العبودية نبيًا ملكًا، يا من سمع الهمس من ذي النون في ظلمات ثلاث ظلمة قعر البحر وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت، يا راد حزن يعقوب، ويا راحم عبرة داود ويا كاشف ضر أيوب، يا مجيب دعوة المضطرين، يا كاشف غمم المهمومين، صَلِّ على محمد وعلى آل محمد، وأسألك أن تفعل بي كذا وكذا.

ومنها: ما رواه عبد الرزاق الطبسي عن ابن عباس مرفوعا: ﷺ من كانت له حاجة إلى الله فليقم في موضع لا يراه أحد، وليتوضأ وضوءًا سابغًا وليصل أربع ركعات يقرأ في كل ركعة منها الفاتحة مرة، وقل هو الله أحد في الأولى عشرًا، وفي

الثانية عشرين وفي الثلاثة ثلاثين، وفي الرابعة أربعين، فإذا فرغ من صلاته قرأ قل هو الله أحد، أيضًا خمسين مرة، وصلي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم سبعين، وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله سبعين، فإن كان عليه دين قضى الله دينه وإن كان غريبًا رده الله، وإن كان عليه ذنوب مثل عنان السماء – يعني السحاب– ثم استغفر ربه يغفر له وإن لم يكن له ولد يرزقه الله ولدا، فإن دعاه أجابه، وإن لم يدعه يغضب عليه وكان يقول لا تعلموها سفهاءكم فيستعينوا بها على فسقهم ﴿ قال الحافظ السخاوي: سنده تالف.

ومنها: ما رواه الديلمي في موضعين من (مسند الفردوس) عن الربيع حاجب المنصور، قال: لما استقرت الخلافة لأبي جعفر المنصور قال لي يا ربيع ابعث إلى جعفر بن محمد الصادق من يأتيني به، ثم قال لي بعد ساعة: ألم أقل لك أن تبعث إلى جعفر بن محمد، فو الله لتأتيني به وإلا قتلتك، فلم أجد بدًا فذهبت إليه، فقلت: يا أبا عبد الله أجب أمير المؤمنين فقام معي، فلما دنونا من الباب، قام يحرك شفتيه ثم دخل فسلم عليه فلم يرد عليه فوقف فلم يجلسه، ثم رفع رأسه إليه فقال: يا جعفر أنت الذي أَلَّبْتَ علينا وأكثرت، وحدثني أبي عن أبيه عن جده أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به ﴾ فقال جعفر: حدثني أبي عن أبيه عن جده أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ ينادي مناد يوم القيامة من بطنان العرش ألا فليقم من كان أجره على الله تعالى، فلا يقوم إلا من عفا عن أخيه ﴾ فما زال يقول حتى سكن ما به ولان له، فقال: اجلس أبا عبد الله، ارتفع أبا عبد الله، ثم دعا بمدهن غالية فجعل يخلقه بيده والغالية تقطر من بين أنامل أمير المؤمنين، ثم قال: انصرف أبا عبد الله في حفظ الله، وقال لي: يا ربيع اتبع أبا عبد الله جائزته واضعف له، قال فخرجت فقلت أبا عبد الله تعلم محبتي

لك؟ قال: نعم أنت يا ربيع مِنَّا، حدثني أبي عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ مولى القوم من أنفسهم ﴾ فقلت: يا أبا عبد الله شهدت ما لم تشهد وسمعت ما لم تسمع، وقد دخلت عليه ورأيتك تحرك شفتيك عند الدخول عليه، فهل هذا شيء تقوله من عندك؟ أو شيء تأثره عن آبائك الطيبين؟ قال: بلى حدثني أبي عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا حَزَّ به أمر دعا بهذا الدعاء: ﴿ اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكفني بركنك الذي لا يرام، وارحمني بقدرتك علي، فلا أهلك وأنت رجائي، فكم من نعمة أنعمت بها علي قلَّ لك بها شكري، وكم من بلية ابتليتني بها قلَّ لك بها صبري، فيا من قلَّ عند نعمته شكري فلم يحرمني، ويا مَنْ قلَّ عند بليته صبري، فلم يخذلني، ويامن رآني على الخطايا فلم يفضحني، يا ذا المعروف الذي لا ينقضي أبدًا، ويا ذا النعماء التي لا تحصى عددًا، أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد، وبك أدرأ في نحور الأعداء والجبارين، اللهم أعِنِّي على ديني بالدنيا، وعلى آخرتي بالتقوى، واحفظني فيما غبت عنه ولا تكلني إلى نفسي فيما حظرته عليّ، يا من لا تضره الذنوب، ولا ينقصه العفو، هب لي ما لا ينقصك، واغفر لي ما لا يضرك، إنك أنت الوهاب، أسألك فرجًا قريبًا، وصبرًا جميلًا، ورزقًا واسعًا، والعافية من البلايا، وشكر العافية ﴾ وفي رواية زيادة: ﴿ وأسألك تمام العافية، وأسألك دوام العافية، وأسألك الشكر على العافية وأسألك الغني عن الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ﴾ قال الحافظ السخاوي: "سنده ضعيف جدًا"ا.هـ.

ومنها: ما رواه العقيلي في الضعفاء وأبو يعلى والطبراني والبيهقي في (الدعوات وفضائل الأوقات) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ ما من عبد ولا أمة دعا الله ليلة عرفة بهذه الدعوات – وهي عشر

كلمات- ألف مرة إلا لم يسأل الله شيئًا إلا أعطاه، إلا قطيعة رحم أو مأثما: سبحان الذي في السماء عرشه، سبحان الذي في الأرض موطئه، سبحان الذي في البحر سبيله، سبحان الذي في النار سلطانه، سبحان الذي في الجنة رحمته، سبحان الذي في القبور قضاؤه، سبحان الذي في الهواء روحه، سبحان الذي رفع السماء، سبحان الذي وضع الأرض، سبحان الذي لا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه ﴾ قال البيهقي: زاد بعض رواته ﴿ أن تكون على وضوء فإذا فرغت من آخره صليت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم واستأنف حاجتك ﴾ أي استأنف طلب حاجتك من الله، وادع بما شئت غير الإثم وقطيعة الرحم، وهذا الحديث ذكره ابن الجوزي في (الموضوعات) وتعقب، والصواب أنه ضعيف.

ومنها: ما رواه الحاكم عن السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها مرفوعًا: ﴿ من قال الحمد لله رب العالمين أربع مرات، فإن قالها الخامسة، نادى ملك من حيث لا يسمع صوته: إن الله قد أقبل عليك فسله ﴾ أورده ابن الجوزي في (الموضوعات)، وتعقبه الحافظ في (أماليه) فقال: هو حديث حسن وأيَّده في الحديث القدسي: ﴿ من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته قبل أن يسألني ﴾ وفي رواية: ﴿ أعطيته أفضل ما أعطي السائلين ﴾

ومنها: ما رواه ابن منده في (مسند إبراهيم بن أدهم) عن عمر وعلي رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ من دعا بهذه الأسماء استجاب الله له: اللهم أنت حي لا تموت، وأنت خالق لا تغلب، وأنت بصير لا ترتاب، وسميع لا تشك، وصادق لا تكذب، وغالب لا تغلب، وأبديٌ لا تنفد، وقريب لا تبعد ، وغافر لا تظلم، وصمد لا تُطْعَم، وقيوم لا تنام، ومجيب لا تسأل، وجبار لا تقهر، وعظيم لا ترام، وقوي لا تضعف ووفي لا تخلف، وعدل لا تحيف

وغني لا تفتقر وحليم لا تجور ومنيع لا تقهر ومعروف لا تنكر ووكيل لا تحقر، وقدير لا تستأمر، وفرد لا تستشير، ووهاب لا تمل، وسريع لا تذهل، وجواد لا تبخل، وعزيز لا تذل وقائم لا تنام، محتجب لا ترى، وحافظ لا تغفل، ودائم لا تفنى، وباق لا تبلى، وواحد لاتشبه، ومقتدر لا تنازع ﷺ، وذكر في آخر الحديث أنَّ من دعا بهذه الأسماء لأي شيء أجيب، وذكره ابن الجوزي في (الموضوعات)، قال وقد روي من طريق مظلم فيه مجاهيل، وفيه زيادات ونقصان، قلت: الطريق الذي أشار إليه رواه أبو نعيم في (الحلية)، بإسناد واه.

ورواه ابن النجار في (تاريخه)، وجاء في روايته: ﷺ اللهم إني أسألك ولا أسأل غيرك، أرغب إليك ولا أرغب إلى غيرك، وأسألك يا أمان الخائفين، وجار المستجيرين، مفيض الخيرات، مقيل العثرات، ممحي السيئات، كاتب الحسنات رافع الدرجات وأسألك بأفضل المسائل كلها، أعظمها وأنجحها الذي لا ينبغي أن يسألوك إلا بها يا الله يا رحمن، وباسمك وبأسمائك الحسنى، وبأمثالك العليا، ونعمتك التي لا تحصى، وبأكرم أسمائك عليك، وأحبها إليك، وأشرفها عندك منزلة، وأقربها منك وسيلة، وأجزلها منك ثوابًا وأسرعها منك إجابة، وباسمك المكنون المخزون الجليل الأجل الأعظم الذي تحبه وتهواه، وترضى عمن دعاك به وتستجيب له دعاءه، وحقًا عليك ألا تحرم سائلك، وبكل اسم هو لك علمته أحد من خلقك، أو لم تعلمه أحدًا، وبكل اسم دعاك به حملة عرشك وملائكتك، والراغبون إليك، والمتعوذون بك، والمتضرعون إليك، وبحق كل عبد متعبد لك في بر أو بحر أو سهل أو جبل، وأدعوك دعاء من اشتدت إليك فاقته، وعظم حزنه وأشرف على الهلكة، وضعفت قوته، ومن لا يثق بشيء من عمل ولا يجد لفاقته ولا لذنبه غافرًا غيرك، ولا مغيثا سواك، هربت إليك معترفًا غير مستنكف، ولا مستكبر عن عبادتك، بائسًا

حقيرًا متحيرًا، وأسألك بأنك الله الذي لا إله إلا أنت الحنان المنان، بديع السموات والأرض، ذو الجلال والإكرام، عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، أنت الرب أنا العبد، أنت الملك أنا المملوك وأنت العزيز وأنا الذليل، وأنت الغني وأنا الفقير، وأنت الحي وأنا الميت، وأنت الباقي وأنا الفاني، وأنت المحسن وأنا المسيء، وأنت الغفور وأنا المذنب، وأنت الخالق وأنا المخلوق، وأنت القوي وأنا الضعيف، وأنت المعطي، وأنا السائل، وأنت الآمن وأنا الخائف، وأنت الرزاق وأنا المرزوق، وأنت أحق من شكوت إليه واستعنت به وسألته ورجوته، كم من ذنب قد غفرت، ومن مسيء قد تجاوزت عنه، فاغفر لي وتجاوز عني ﷺ ثم تطلب حاجتك.

وهذا الحديث – وإن كان عظيمًا يشتمل على جمل في توحيد الله وتنزيهه، والتضرع إليه– ليس بصحيح كما تقدم.

قلت: هذه جملة من الأذكار والدعوات التي تقال عند عروض حاجة لتقضي، وهي – كما ترى– ضعيفة جدًا بل منها ما أدرج في الموضوعات، وما تركناه منها أشد ضعفًا مما ذكرنا بخلاف حديث الضرير فإنه صحيح على شرط الشيخين كما تقدم، فيتعين العمل به دون غيره مما ورد في هذا الباب[1]، لثبوته عن النَّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولعمل الناس به على مر الأزمان.

قال الحافظ السخاوي في (القول البديع) – ص 181– ما نصه: "وأما الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم في الأحوال كلها، ومن تشفع بجاهه صلى الله عليه وآله وسلم وتوسل بالصلاة عليه، فبلغ مراده وأنجح قصده، وقد أفردوا ذلك

(1) نعم يجوز استعمال تلك الأذكار التي أوردناها لمن أراد ذلك لكن لا يعتقد ثبوتها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنها لم تصح عنه، وليس من شرط الدعاء أن يكون واردًا فالإنسان أن يدعو بما شاء من غير تقييد ولا تضييق وإن كان الدعاء بالوارد أفضل وعلى هذا يتعين العمل بحديث الضرير لمن أراد أن يتقيد بالوارد في هذا الباب.

بالتصنيف ومن ذلك حديث عثمان بن حنيف الماضي وغيره، وهذا من المعجزات الباقية على مر الدهور والأعوام، وتعاقب العصور والأيام، ولو قيل إن إجابات المتوسلين بجاهه عقب توسلهم يتضمن معجزات كثيرة بعدد توسلاتهم لكان أحسن، فلا يطمع حينئذ في عد معجزاته حاصر؛ فإنه لو بلغ ما بلغ منها حاسر قاصر"ا.هـ.

وذكر القسطلاني في (المواهب اللدنية) أواخر الجزء الثاني في الكلام على الزيارة النبوية الشريفة أنه توسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في حادثة مرض به، وفي حادثة الصرع بجاريته، فأجاب الله طلبه في كلتيهما عاجلًا بدون تأخير، والمقصود أن التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم جائز في جميع الحالات، واستمر عليه عمل الناس منذ عهد الصحابة وهلم، لم يخالف في ذلك إلا ابن تيمية وقلده شذاذ من النجديين القرنيين في هذه العصور المتأخرة، فأوجدوا فرقة واختلافًا، وكان ظهورهم من جملة عوامل انحلال المسلمين، وضعف شوكتهم، وتشتيت كلمتهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولله الأمر من قبل ومن بعد، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

هذا آخر الجزء، نسأل الله أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعلنا وسائر أهلنا وعشيرتنا وأحبابنا من المقبولين لديه، وأن يستر عوراتنا، ويُؤَمِّنَ روعاتنا، وينجينا من آفات الوقت وأهواله، إنه سميع قريب مجيب، وصلى الله على سيدنا وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، والحمد لله رب العالمين.

آل البيت - فلسطين

المركز الوطني للبحوث والدراسات

غزة - فلسطين

تلفون: 0097282820422

فاكس: 0097282820433

جوال: 00972599603197

بريد إلكتروني: info@alalbait.ps

موقع إلكتروني: www.alalbait.ps